القلق النفسي في القرآن

تأملات في ضوء التحليل النفسي والتفسير

دكتور

نافذ الشاعر

جميع حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: القلق النفسي في القرآن

اسم المؤلف: د. نافذ الشاعر

الطبعة الأولى: نوفمبر ٢٠٢١

جميع الحقوق محفوظة

القلق النفسي في القرآن

في ضوء التحليل النفسي والتفسير

دكتور

نافـذ الشاعـر

جدول المحتويات

مقدمة	٩
الفصل الأول	١٠
السلوك الإنساني والقلق	١٠
لكل نبأ مستقر	١١
الذكر والأنثى والقلق	٢٣
الوراثة والبيئة	٢٧
المذاهب الفكرية والقلق	٣٦
القلق والتصوف	٤٤
يَذْرَؤُكُمْ فيه	٥١
القلق والفلسفة	٥٧
القلق وخطبة الجمعة وكرة القدم	٥٩

القلق والنصح ٦٦

القلق والغش ٧٢

القلق والفتنة ٧٥

القلق والوجود ٨٥

القلق واليقين ٨٩

عقلانية إبراهيم عليه السلام ٩٤

الفصل الثاني ٩٨

القلق وأوقات الصلاة والخشوع ٩٨

الخشوع في الصلاة ٩٩

تعاقب الأحوال والحالات ١٠٢

نزول البركات وقت الفجر ١٠٥

نزول الفتن وانكشاف العورات ١١٠

عموم الفيوضات	١١٤
الفصل الثالث	١١٧
قلق عدم الاستيعاب	١١٨
فقدان السيطرة	١٢٦
شهوات الإنسان	١٣١
الغل والغليل	١٣٤
مشتهيات الإنسان	١٣٧
أولاً: اشتهاء النساء	١٣٩
ثانياً: اشتهاء الطعام	١٤٤
الشهوة والهوى	١٤٧
العلمانية وقلق عدم الاستيعاب	١٤٩
المفاهيم القرآنية والاستيعاب	١٥٢

نماذج أخرى	١٥٥
قلق عدم الاستيعاب وبداية الوحي	١٦٣
قلق عدم الاستيعاب والحسد	١٦٥
سأرهقه صعوداً	١٧٠
الحب وقلق عدم الاستيعاب	١٧٤
امرأة العزيز وقلق عدم الاستيعاب	١٨٠
ولقد همت به وهمّ بها	١٨٣
وغلقت الأبواب	١٨٦
القلق والغرام	١٨٨
قلق عدم الاستيعاب وسليمان عليه السلام	١٩٢
بلقيس وسليمان عليه السلام	٢٠٢
الفصل الرابع	٢١٠

قلق المخالفة والاختلاف	٢١١
قلق التزايل والمزايلة	٢١٨
فأثابكم غماً بغم	٢٢٣
الفصل الخامس	٢٣٠
قلق النفاق	٢٣١
ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم	٢٣٩
النفاق في اللغة	٢٤٣
الفصل السادس	٢٤٦
الجدار النفسي	٢٤٧
قد فرض لكم تحلة أيمانكم	٢٦٢
الانسجام في سورة الصف	٢٦٧

كلمة لابد منها

قبل البدء في عرض هذا البحث، لابد من التنويه إلى حقيقة هامة، وهي أن هذا البحث، في تقديرنا، سوف لا ينتفع به صنفان من القراء؛ الأول: من اعتادوا القراءة السطحية السريعة، التي تشبه قراءة الصحف والمجلات، والتي ينتظرون من خلالها أن تنفذ المعاني إلى عقولهم، كما ينفذ اليورانيوم المشع إلى جسم الإنسان عندما يقترب منه أو يلامسه!. فهؤلاء ليسوا على استعداد أن يبذلوا أدنى جهد أو عناء لفك مغاليق هذه الأفكار، هذا إن كان حقاً فيها مغاليق.

والصنف الثاني: من لم يعيشوا تجربة هذه الأفكار سابقاً، ولم تمتزج في نفوسهم امتزاج اللحم والدم.

فأرجو من الله أن ينال كتابي هذا القبول، ويكتب به النفع. آمين!

الفصل الأول

السلوك الإنساني والقلق

لكل نبأ مستقر

إن المعلومة بغير تجربة وجدانية يعيشها الإنسان تظل لفظاً بلا معنى، وجسداً بلا روح، إلى أن يعيش الإنسان تجربة وجدانية؛ فيدرك عندئذ تلك المعلومة إدراكاً حياً مؤثراً..

على سبيل المثال، نحن نحفظ كثيراً من الآيات القرآنية، أو الأبيات الشعرية، أو الحكم النثرية.. ، ثم تبقى هذه المحفوظات مجرد أقوال، جسداً بلا روح، ولفظاً بلا معنى.. إلى أن يعيش الإنسان تجربة هذه الألفاظ والأقوال. عند ذلك، فقط، تنفخ فيها الروح وتدب فيها الحياة.

والعكس صحيح؛ عندما يمر الإنسان بتجربة حية، وخبرة مؤثرة، فإن هذه التجربة وتلك الخبرة، تبقى حية في النفس، لكننا، غالباً، لا نستطيع بلورتها في عبارات موجزة، أو في كلمات رشيقة تصف هذه التجربة تمام الوصف.. ويبقى الأمر كذلك إلى أن نسمع آية من القرآن، أو بيتاً من الشعر، أو حكمة من النثر، فينشرح الصدر، وتقر النفس، ويشرق الوجه.. ونكاد نقفز فرحاً

ونردد قول أرشميدس: "وجدتها"! .. عند ذلك فقط نقول إن العلم قد وعاه القلب وحفظه العقل.

إن هذه الفكرة يمكننا أن نطلق عليها (التعرف) Recognition ؛ وفي التعرف تكون الأشياء الخارجية مجرد مثيرات، تستدعي أنماطاً خاصة من السلوك، فإن ظهر المثير ظهر السلوك.

التعرف يشبه عملية التذكر والنسيان. ففي عملية التذكر يحدث، أحياناً، أن تختزن الذاكرة أشياء كثيرة لا يذكرها الإنسان. بل، لا تخطر له على بال، إلا إذا مرَّ بموقف معين. عندها، تجد هذا الموقف يكون سبباً في استرجاع شيء في الذاكرة طواه النسيان.

خذ على سبيل المثال الأحلام.. إننا نرى أحلاماً كثيرة، لا نذكرها غالباً، إلا إذا تحقق هذا الحلم في النهار. وخذ، مثلاً، العلم والتجربة الإنسانية، أو النظرية والتطبيق؛ فتجد أن الكاتب يقرأ كثيراً من الأفكار والآراء، ثم هو لا يدركها إدراكاً صحيحاً، يكون نابعاً من نفسه، إلا بعدما يلتقي بهذه الأفكار في الحياة، أثناء مخالطته

للناس أو التفاعل معهـم، فيكـون هـذا نـوع مـن "التعـرف"، أي التعرف على الأفكار النظرية مجسدة في صورة حسية حية.

أحياناً يكون "التعرف"، بصورة معكوسة، عندما يجمع الكاتب بين الاحتكاك المباشر مع الواقع، ثم القراءة لهذا الواقع في الكتـب. فعندما يقرأ الكاتب هذا الواقع في فكرة مختصرة وعبارة مـوجزة، يستعيد نفس الإحساس الـذي أحسه أثنـاء تعاملـه مـع النـاس. وبالتالي، يشعر بالسعادة، لأن هذه الفكرة التـي كانـت تسـبب لـه القلق والانزعاج، أثناء تعامله مع الآخرين، وجدها صيغت بإيجاز في بضع كلمات.

هذا هو السر الرئيسى في استمتاع الإنسان بالفنون، وعلى رأسها الشعر والقصة؛ لأنه يجد المواقف التـي كـان يعيشـها قـد جُسـدت أمامه في بلاغة وإيجاز.. وبالتالي، يستطيع استدماج بعض المواقـف في مخزونه السلوكي. هذا التخزين يعمـل، فـيما بعـد، عـلى تعـديل بعض سلوكياته، التي ربما لم يكن قد تصرـف فيهـا عـلى مـا يـرام، فيعيد ترتيب منظومته السلوكية وهو آمن نسبياً.

أعود إلى شرح فكرة الأشياء الخارجية التي تكون بمثابة مثيرات داخلية. مثلاً الطعام الذي ما إن يراه الجائع حتى يستثير عنده اللعاب. والسيجارة التي تفتح شهية المدخن دون غير المدخن. وزجاجة الخمر، التي تثير رغبة احتسائها عند الرجل الذي سبق أن عاقرها..

وهكذا، قل في كل الأشياء المغرية التي تستدعي الغواية في قلب الرجل الذي سبق له أن اقترف أمثال تلك الغوايات. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) (الشعراء:٢٢٤)**

إن قصيدة الشعر، تلقى على مسامع أناس كثيرين. لكنها، في نفس الوقت، لا تحرك المشاعر المختلفة، والأحاسيس المتباينة، إلا في الأشخاص الذين سبق ومروا بتلك المشاعر والأحاسيس.

أحياناً، قد يعمل بيت من الشعر، في نفس شخص عمل السحر، بينما لا يؤثر البتة في نفوس أشخاص آخرين يتلى على مسامعهم؛ لأنهم لا يوجد في نفوسهم قبول سابق لهذا التأثير. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي**

الإثم..) (المائدة:٦٢)

فالذين سارعوا في الإثم هم الذين كان المرض في قلوبهم سابقاً لهذه الإثم الذي سارعوا إليه، وهو موجود بادئ ذي بدء. فالمرض كان أولاً ثم جاء الإسراع للغواية ثانياً. فالغواية تبحث عن مرض القلب، ومرضُ القلب يبحث عن الغواية، مثلما تبحث الأرض عن بذرة تحتضنها وتنبتها، ومثلما تبحث البذرة عن أرض قابلة للإنبات.

انظر إلى قوله تعالى: **(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)** (الأنعام:١١٣)

إننا نجد في هذه الآية إشارة إلى أن هناك أقوالاً ضالّة تُنشر، وأحاديث باطلة تذاع، وأباطيل ملفقة تتردد..، لكن، من الذي أصاخ لها السمع، وأرخى لها الأذن؟ إنهم فقط الذين لا يؤمنون بالآخرة، فكأن هذا القول الغاوي الضال، جاءهم على ترقب منهم وانتظار، فلاقي لديهم القبول والاستعداد، أو كما قال المتنبي:

إنما تنجح المقالة في المرء   إذا صادفت هوى في الفؤاد

وانظر إلى قوله تعالى: **﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾** (الأحزاب:٣٢)

إن هذه الآية تصف حركة إغراء من امرأة. لكن هذه الإشارة المغرية، لا تثير شهوة كل الناس، إنما تقع موقعها، فقط، في القلب الذي يكون مستعداً لمثل هذه الحركة، وهو القلب الذي يستكن فيه المرض قبل هذه الحركة. وبالتالي، هو يسارع إلى التقاط هذه الحركة عند ظهور أولى بوادرها!..

إن هذا الالتقاء بين النزعة الداخلية وبين المثيرات الخارجية، يعقبه راحة نفسية. هذا البحث عن المثير الخارجي الذي ينسجم مع الحافز الداخلي، هو الوسيلة لتزويد الشخص بإحساس أكثر وضوحاً حول ذاته، وهو بمثابة بحث عن الهوية المشوشة لديه.

وقد عبر "رالف تارتر" العالم السيكولوجي على نتائج بحث أجراه حول مدمني التدخين والمخدرات قائلاً: إن هناك من الناس من هم أكثر استعداداً بيولوجياً للإدمان، مما يجعل أول كأس أو مخدر يعمل على تقوية هذا الاستعداد، بينما لا يتأثر به الآخرون، وقد قال كثير ممن شفوا من الإدمان إنهم شعروا، أنهم طبيعيون في

اللحظة التي تعاطوا فيها المخدرات لأول مرة. فهي تعمل على استقرارهم فسيولوجياً، على الأقل، على المدى القصير؛ إذ إن الشعور الجميل على المدى القصير، يقابله انهيار حياتهم. ويبدو أن أنماطاً عاطفية معينة تجعل بعض الناس يرتاحون عاطفياً لتعاطي مخدر ما عن مخدر آخر. هذا النموذج من المدمنين تقل في أجسامهم إفرازات ناقل عصبي يسمى GABA فيرتفع مستوى التوتر.

وقد وجدت إحدى الدراسات أن أولاد مدمني الخمور من الآباء منخفضي إفراز الـ GABA كانوا أعلى درجة في التوتر، لكنهم إذا شربوا الخمور ارتفع مستوى الناقل العصبي، وانخفض مستوى توترهم. هؤلاء هم الذين يجدون في الخمر راحة لا يجدونها في أي شيء آخر، وهم الأكثر استعداداً لإدمان المهدئات طلباً لخفض التوتر.

ويختم "روالف تارتر" كلامه قائلاً: إن قابلية التأثر بإدمان المخدرات قد تكون مرتبطة بالمخ في حالات كثيرة، فالمشاعر التي تدفع الناس إلى علاج أنفسهم بالخمر والمخدرات يمكن التعامل معها دون الرجوع إلى العلاج بالمخدرات. فيجب اكتساب القدرة

على معالجة هذه المشاعر، بتخفيف القلق، والتخلص من الكآبة، وتهدئة الغضب. وبهذا يمكن إزالة القوة الدافعة لاستعمال المخدرات والخمور في المقام الأول[1]

وانظر إلى المفارقة التي تدعو إلى التأمل في نتائج بحث أجراه "جيرودو" على الصعوبة التي يواجهها العملاء السريون في قضايا المخدرات مثلاً، عندما يكون عليهم أن ينغمسوا بأنفسهم كلياً في حياة المجرمين الذين يقومون بالتحري عنهم. هنا، ينبغي أن يكون لعبهم للدور مقنعاً، لأن حياتهم نفسها تكون معرضة للخطر، لذلك عليهم أن يتظاهروا بهويتهم الجديدة على نحو عميق، بحيث قد يعانون من مشكلات في إعادة اكتشاف ذواتهم الحقيقية بعد ذلك. وقد أطلق "جيرودو" على هذه المشكلات اسم "إجهاد إعادة الدخول في الدور" وأحياناً ما يكون هذا الإجهاد شديد القوة بحيث يكون الفصام هو النتيجة الناجمة عنه.

والنتيجة ذاتها تحدث للممثلين. فحصول الممثل على الاستحسان كل ليلة نتيجة لتصويره سمات وقيم واتجاهات معينة

---

[1] الذكاء العاطفي: دانييل جولمان، عالم المعرفة، ٢٠٠٠م

خاصة بالشخصية التي يؤديها يجعله غير قادر على مقاومة انتقال هذه السمات والقيم إلى حياته الخاصة ذاتها.. مما يرسخ حالة تشوش الهوية لدى هؤلاء الفنانين. فبقدر ما يكون الدور الذي يؤدونه مختلفاً عن ذواتهم الحقيقية، بقد ما يكون مؤدياً إلى إرباكهم وتشوشهم[٢]

هذا يفسر لنا الراحة النفسية التي تعقب كتابة القصة أو القصيدة أو المقالة لدى الكتاب بعد الانتهاء من تلك الفنون الأدبية. بل، الأغرب من ذلك، ما توصلت إليه دراسات حديثة من أن الدافع لتناول أنواع الشيكولاتة هو دافع بيولوجي، وإن هذا الميل لأكل هذه الأنواع من الحلوى بفعل جينات خاصة يرثها الشخص، مما يفسر لنا الراحة التي تعقبها تناول مثل هذه الحلويات لدى بعض الأشخاص! ..

ولا نريد أن نطيل في سرد هذه البحوث لئلا ينحرف بحثنا عن مساره الذي قطعناه على أنفسنا منذ البداية. إلا أننا وجدنا سردها هنا يفيد في تعميق الفكرة التي نحن بصددها.

---

[٢] جيلين ويلسون: سيكولوجية فنون الأداء، سلسلة عالم المعرفة ٢٠٠٠م

أعود فأقول: إن "التعرف" يكون بمثابة استدماج سلوكيات بعينها. فنحن، مثلاً، نتفاعل مع سلوكيات كثيرة في حياتنا، ثم نحن لا نأخذ من تلك السلوكيات إلا ما يتناسب مع طبيعتنا، وكل شخص يقوم باستدماج وإحراز سلوكيات تختلف عن الشخص الأخر.. وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)** (الرعد:١٧)

أي أنزل من السماء ماءً كثيراً، فاستقبلت الأودية هذا الماء، فأخذ كلُّ وادٍ من الماء ما يتناسب مع حجمه وسعته!

من خلال ما تقدم نستطيع أن نقرر حقيقة هامة، وهي أن فهم الإنسان يستند إلى شقين يلتحمان مع بعضهما البعض.

هذان الشقان عبارة عن ثنائية، أو زوجية، نجدها في كل شيء من حولنا: في السالب والموجب.. في اللفظ والمعنى.. في الجسد والروح.. في القول والعمل.. في الدنيا والآخرة.. في الذكر والأنثى.. في الذات والموضوع.. في الجوهر والعَرَض.. في الحسي والمعنوي...الخ.

ونزيد هذه الحقيقة الهامة وضوحاً فنقول: لا يمكن لأي شق، أن يحيا بمعزل عن شقه الآخر، لأنه سيصبح ميتاً لا ينبض بالحياة. أما إذا التقيا؛ فسيؤدي هذا الالتقاء إلى الالتحام الذي يشبه التحام القطبين الموجب والسالب، الذي ينتج من التحامهما شحنة كهربائية يؤخذ منها الضوء والحياة. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى:**(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)** (الذريات:٤٩) وقوله تعالى:**(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)** (الروم:٢١).

نأخذ مثلا هنا قبلة الصلاة، فإن الاتجاه إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، كان موجوداً في نفس النبي صلى الله عليه وسلم، وفي أصل تكوينه؛ لأنه من نسل إبراهيم وعلى ملته، لذا عندما استقبل بيت المقدس لم تقر عينه، ولم تطب نفسه بهذه القبلة، فكأن نفسه صلى الله عليه وسلم، أكرهت على شيء لا ترضاه ولا تألفه.. شيء خارجي لا تجد له أصلاً في صميم فطرتها وتكوينها، لهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يشعر بالقلق وعدم الرضا، كما قال تعالى: **{قَدْ نَرَى**

تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..}(البقرة١٤٤)

فلما جاء الأمرُ بالتوجه إلى البيت الحرام سارع إلى ذلك وشعر بالألفة بينه وبين هذه القبلة.. فحدث الاِلْتِئَام الذي لم يعقبه انفصال قط..

أما أهل الكتاب فلم يشعروا بهذه الألفة والانجذاب بينهم وبين هذه القبلة لأنهم لم يكونوا على ملة إبراهيم، وهذا ما جاءت إليه إشارة بقوله تعالى: **{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ}**(البقرة١٤٥)

الذكر والأنثى والقلق

عندما نتأمل قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا } [الروم : ٢١] يتبين لنا أمران:

الأول: قوله تعالى "من أنفسكم" فيه دلالة على أن زوجة الرجل خلقت من نفسه، أو من ضلعه، كما ورد في بعض الأخبار، وبهذا يكون حنين الرجل للأنثى بمثابة بحث عن جزء نفسه المفقود، الذي أدى إلى اختلال توازنه عندما انتزع منه. لهذا جاء التعبير عن هذه الرابطة الزوجية بقوله تعالى "لتسكنوا إليها". ومن المعلوم أن السكون هو الذي يعقب اضطراب الحركة، كما يسكن الماء المغلي إذا صُب عليه الماء البارد.

هذا، ويمكننا الاستئناس هنا بدراسة أمريكية، أجريت في جامعة نيويورك، وقد بينت هذه الدراسة أن قضاء وقتاً أطول مع شريك الحياة، يعد واحداً من أفضل الطرق لخفض ضغط الدم. وقالت الدراسة أنه عندما يكون الزوج أو الزوجة في صحبة بعضهما، فإن ضغط الدم ينخفض إلى ما دون المستوى الذي يصل

إليه عندما يكون الشخص وحيداً أو مع أصدقائه، وأن هذه النتيجة تتحقق حتى ولو كانت العلاقة بين الزوجين غير جيدة. وأكدت الدراسة أن السبب في ذلك هو علاقة الاعتياد بين الزوجين التي من شأنها بث الشعور بالاسترخاء، بينما يؤدي التعامل مع الغرباء إلى شعور بالتحفز.

الثاني: أن السكون إلى الأنثى ربما لا يكون بسبب اشتقاق المرأة من الرجل، إنما لأمر آخر، ربما بسبب خصائص الرجل الروحية التي لا تكتمل إلا بالأنثى. وكذلك الحال لخصائص المرأة الروحية التي لا تكتمل إلا بالرجل؛ وعند ذلك يسكن كل منهما للآخر سكون الطائر للعش. وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله:

ألا فاعلمي الآن علم اليقين　　سأكشف عن سرّ حبي الدفين
لقد عشتُ للجد جد الرصين　　أهم وأكبو بعبء السنين
إلى أن لقيتك خفاقة　　توقد فيك الهوى والفتون
فأنت هنا فرحة تمرحين　　وأنت هنا نشوة تقفزين

فأكمل هذا المراح الطروب   هدوء الحزين وجد الرصين[3]

يحدثنا الشاعر عن نفسه بأنه عاش حياة جادة رصينة، يحمل على كاهله عبء السنين الطوال، دون ملل أو سأم، حتى التقى بفتاة أحبها حباً طاغياً، استولى على أقطار نفسه. ثم هو في بحثه عن أسرار هذا الحب الجارف، أدرك أنه أحبها لتمتعها بخصال نفسية لا يملكها هو كالمرح، والنشوة، والدعابة، وخفة الروح.. الخ. وبالتالي، أكملت بهذه الخصال ما يفتقده الشاعر من الخصال.

والآن، ما دمنا قد تطرقنا لهذه النقطة دعنا نناقشها بتفصيل أكثر، حتى نصل إلى معنى قوله تعالى الذي صدّرنا به حديثنا (**لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ**) (الأنعام:٦٧)

إن هذا يجعلنا نقرر بأن كل شيء في الكون ناقص، ولكي يكتمل يجب أن يلتحم بالشق الآخر. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: (**لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ**). فهنا، نجد أن "النبأ" يبحث عن مستقر، و"المستقر" يبحث عن نبأ؛ فيكون المعنى: لكل نبأ مستقر، ولكل

---

[3] سيد قطب: ديوان الشاطئ المجهول: ص١٧٢

مستقر نبأ، ومتى التقيا استقر كل منهما في الآخر استقرار اليرقـة في صدفتها.

بهذا نستطيع تفسير ميول بعض الناس إلى تخصصات ومواهـب دون غيرها. بل أكثر من هذا، نستطيع معرفة سبب انحراف بعـض الناس دون آخرين ممن اجتمعت لهم نفسُ الظـروف والأحـوال؛ وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعـالى: **[وَتَـرَى كَثِـيراً مِـنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثم]**(المائدة٦٢). وقوله: **[فترى الـذين في قلـوبهم مرض يسارعون فيهم]**(المائـدة٥٢). والمعنـى أنهـم يسـارعون إلى الإثم، والإثم يسارع إليهم! أو كما قـال الإمـام الغـزالي: "والطبـع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعْرَاض عن الحسنات. بل، يميـل إلى خلق الهفوة فيمن لا هفوة فيه.."[٤]

وفي المعنـى السـابق جـاءت الإشـارة بقولـه تعـالى: **(أُولَئِـكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)(المؤمنون:٦١)** أي أن الخير في أغوار نفوسهم أسبق من الخير الـذي فعلـوه خـارج نفوسـهم. وعلى هذا، نجد أن الخير الذي في قلوبهم هو الدافع للخير الصـادر

---

[٤] الإمام أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ٢/ ٢١١

منهم في الحياة الدنيا، فهم سارعوا إلى فعل الخير عندما لاحت لهم بوادره، وظهرت أولى إماراته؛ لأن القلوب الخيرة نجدها، دوماً، تبحث عن الخير، والخير يبحث عنها. وقد أشار الأعشى إلى معنى قريب من هذا فقال:

خلقت هند لقلبي فتنة هكذا تعرض للناس الفتن

والمعنى أن "هند" خلقت وفي خصالها ما يفتن قلب الشاعر، وقلب الشاعر خلق وفيه من الخصال ما يجعله يستجيب لفتنة هند.

ومما يعزز هذا المعنى الذي ذهبنا إليه تجربة أجراها العالم الألماني "تن بيرغن" على أنثى إحدى فصائل الأسماك حيث وجدها لا تجذب الذكر إلا ببطنها المنتفخ، وقد برهن على ذلك بعمل دمية لا تشبه الأنثى الأصلية إلا ببطنها المنتفخ، فوجدها تجذب الذكر تماما كما لو كانت الأنثى الحقيقية.

وأيضا التجربة التي أجريت على نـوع مـن الـبط حيـث وجـد سر انجذاب الأنثى له يكمن في الريش الأخضر حول رقبته، فإذا نتف هذا الريش رفضته الأنثى.."[٥]

[٥] كوستا بندلي: الجنس ومعناه الإنساني، ص ٢٧

الوراثة والبيئة

قضية الوراثة والبيئة قضية، شائكة جد شائكة، وقـد حـار فيهـا العقل قديماً ولا زالت إلى يوم الناس هذا موضـع حـيرة وخـلاف. ولا زال السؤال عن العلاقة بين الوراثة والبيئة، أو عـن دور البيئـة والوراثـة في الـذكاء، أو عـن العلاقـة بـين القـدرات الموروثـة والمكتسبة، أو هل الذكاء موروث أو مكتسب، أو هل للغذاء دخل في النمو العقلي أم لا؟..

لازالت كل هاتيك الأسئلة تنقدح فيها الأفكـار وتتبـارى فيهـا العقول والأقلام..

هذا السؤال هو نفسه الذي واجه الفكر الإسلامي في إبان نشأته فأحدث الخلل الرهيب في فكر المسلمين فاعتزل من اعتزل وتشـيع من تشيع، وخرج على الخلافة من خرج، وأرجا من أرجأ.. فمـنهم من قال بالقضاء والقدر، ومنهم من قال بالجبر والاختيـار.. وهـو السؤال نفسه الذي جعل أفلاطون يقول بنظرية المثل، التـي تقـول بأن كل شيء له مثاله في عقل البـاري. وهـو السـؤال نفسـه الـذي

جعل أرسطو يحوره عن أستاذه أفلاطون بصيغة أخرى في نظرية العلة والمعلول. وهو السؤال نفسه الذي لا زال يشغل فكر الفلاسفة في العصر الحديث فتجدهم يرددون هذا السؤال بصيغة مخالفة أو مشابهة، مثل: هل المستقبل موجود أم لم يوجد بعد. أو كما قال بعض الوجوديين: هل الحقيقة اكتشاف أم اختراع؟..

يجيب على كثير من هذه الإشكالات إذا علمنا أن الله عز وجل قد جعل لكل إنسان منا طوراً لا يتعداه، ومقاماً لا يتخطاه، كما قال تعالى: **{وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ}**(الصافات١٦٤)، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **[كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ]**[٦]

لتقريب هذه الفكرة أضرب مثلاً بالسيارة التي تُصمم لتصل لسرعة قصوى مقدارها ٢٠٠كم/ الساعة؛ بشرط أن تزود بنوع خاص من الوقود، وتسير على طريق معبدة.. فإن تحقق هذا الشرط وصلت السيارة لتلك السرعة المصممة بسهولة ويسر، وإن لم

[٦] البخاري : حديث رقم ٦٩٩٦ .

يتحقق هذا الشرط لم تصل السيارة لهذه السرعة. وكذلك الإنسان!..

فالمورّثات أو الجينات تضع حدوداً للإنسان لا يمكن أن يتخطاها في نموه العقلي، دون أن تضمن للإنسان الوصول إليها أو بلوغها. فعلى هذا يولد الإنسان وتولد معه كل إمكانياته الجبلية (الفطرية) في أصل نشأته. أما ما يُخرج هذه الإمكانيات من الذات إلى الموضوع، أو من القوة إلى الفعل، أو من النظرية إلى التطبيق، أو من حيز الإمكان إلى حيز الوجود.. فهو البيئة التي يعيش فيها، والظروف المواتية التي يلاقيها.

إن التعليم لا يُدْخِل في عقل الإنسان ما ليس فيه، وإنما شأن التعليم أن يُخْرِج الإمكانات التي وجدت في العقل بالوراثة، منذ أصل الخلقة والنشأة، من حيز الإمكان إلى حيز الوجود؛ لأن التعليم يقوم بعملية تنظيم الإمكانات الموروثة في العقل فقط؛ كما يحدث لقطعة الحديد قبل أن تكون مغناطيساً؛ فقد كانت توجد فيها خاصية "المغنطة" لكنها متنافرة في شكل خطوط متقاطعة ومتشابكة ومشوشة وغير متناسقة..، فإذا تم إمرار المغناطيس على

هذه القطعة فإنه يقوم بتجميع هذه الخطـوط وتنسـيقها في خطـوط مستقيمة ومتوازية، فتصبح القطعة عند ذلك مغناطيساً.

إن في نفس كل إنسان استعدادات كامنة لا تظهر إلا إذا تـوفرت لها شروط خاصة، تكون في البيئة المحيطة بالإنسان؛ فلـو افترضـنا أن تلـك الاسـتعدادات موجبـة، فـإن شروطهـا تكـون سـالبة، والعكس صحيح. فإذا التقت الاسـتعدادات بشـروطها انجـذبت إليها مثلما تنجذب برادة الحديد إلى المغناطيس. وقد أثبتت كثير من الدراسات النفسية أن الإنسـان لا يولـد وهـو يعـاني مـن المـرض النفسي، كالفصام مثلاً، إنما يولد ولديه استعداد لهذا المرض، ويبقى ظهور المرض وتحققه- بعد ذلك- متوقفاً على توفر البيئـة اللازمـة لهذا المرض.

كـذلك نجـد كثـيراً مـن الأشـخاص يولـدون وهـم يحملـون الاستعداد للإصابة بأمراض عضوية، ويبقى المرض لديهم في طور الكمون والخفاء حتى تتحقق شروطه وتتوفر بيئته.

وكذلك الحال إذا قلنا: هل للغذاء دخل في نمو الذكاء لدى الطفل؟ فالجواب نعم. إن للغذاء دخل في نمو الذكاء، ولكن ليس نمواً لم يوضع في الحسبان، أو لم يجبل عليه أصلاً. أو بمعنى آخر: إن هناك خلايا في الدماغ تختلف من شخص لآخر، بحيث تزيد لدى أشخاص وتنقص لدى آخرين. فهذه الخلايا كي تنمو فإنها تطلب الغذاء، والغذاء يطلبها؛ فلو أعطينا طفلاً أفضل الأغذية لنمو العقل وقشرة الدماغ، التي هي موضع الذكاء، ثم لم تكن هناك خلايا محددة وسابقة، في أصل تكوينه وبدء خلقته، لما انتفع بهذا الغذاء شيئاً!..

فالإنسان يوجد في تكوينه كل إمكانياته المقدرة له، وما يخرج هذه الإمكانات من حيز القوة إلى حيز الفعل هو العلم. فالعلم لا يدخل في عقل الإنسان ما ليس فيه، إنما جل همه أن يُخْرِج ما في عقل الإنسان من حيز الإمكان إلى حيز الوجود، وقد ورد في الأثر: (العلم مجعول في قلوبكم، فتأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين،

وتخلقوا بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلـوبكم حتـى يغمـركم ويغطيكم)[٧]

بإدراكنا لهذه الحقائق نتخلص مـن إشـكالات كثـيرة، ويمكننـا تعليل المواهب والفنون، وبهذا يمكننا تعليل تأثر بعض الناس بنوع من المذاهب دون غيرها...

أما عندما يسلك الإنسان سلوكاً ما بسبب ظروف طارئـة، كـأن يعتنق مذهباً لسبب أو لآخـر، دون وجـود بـذور هـذا المـذهب في أصل تكوينه، فإن هذا يؤدي إلى سرعة نكوصه عن هذا المذهب أو السلوك، ويصدق عليه قول الشاعر:

وأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغيراً　　تكلفُ شيء في طباعك ضده

ونستعين لفهم هذه الحقيقة بقول النبـي صـلى الله عليـه وسـلم الذي رواه البخاري: (إن الأمانة نزلت في جَذر قلوب الرجال، ثـم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة..) فكانت نتيجة هذا العلـم أن زادهم نوراً على نور، كما يقول شراح الحديث.

[٧] الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين

ومعنى الحديث: إن القرآن والسنة لم يؤثرا في تلك القلوب ذلك الأثر الطيب إلا لوجود الأمانة في صميمها من قبل، لذا فإن القرآن والسنة لم يقعا في قلوب خالية من الاستعداد لقبولها، لأن أحكام القرآن تبحث عن تلك القلوب، وتلك القلوب تبحث عن أحكام القرآن، فكل منها يطلب صاحبه ويجد في الطلب، فمتى تم اللقاء عرف كل منهما صاحبه معرفة اليقين، وحدث الوئام الذي ما بعده فِراق. أو كما قال الإمام علي:

رأيت العقل عقلين   مطبوع ومسموع

ولا ينفع مسموع   إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس   وضوء العين ممنوع

وهناك قضية على نفس الشاكلة وهي قضية المنهج الذي وضعه "ديكارت" للتفكير حتى يصح إن سار عليه. ففي هذا المقام لا ينبغي أن نسأل كم إنسان قرأ هذا المنهج، أو إلى كم لغة ترجم؟.. بل الأجدر أن نسأل: كم إنسان قرأ هذا المنهج وانتفع به أو استفاد منه؟

لماذا هذا السؤال، لأن ديكارت عندما وضع منهجه كان يقص علينا سيرة ذاتية، لكنها ليست سيرة ذاتية كالمعتاد في السير الذاتية، إنما سيرة ذاتية لفكره وليس لحياته، ففلسفة ديكارت ما هي إلا استبطان لمراحل الفكر عنده، ولذلك يتضح لنا الأمر لو أجبنا على هذا السؤال: هل ديكارت اتبع منهجاً فكرياً فصح عنده الفكر، أم صح عنده الفكرُ بادئ ذي بدء فانبثق منه هذا المنهجُ انبثاقاً؟

فكم هو البون شاسعاً بين عقل يتدفق بالحيوية من كل جانب، فيتنسم الريح قبل هبوبها، ويُحْصي الخطى قبل مسيرها، وبين عقل حظه من الفكر الاقتداء والاستئناس، وطلب المدد والعون عندما تختلط عليه الأمور وتتشابك الخطوب، فيكون حاله كما قال الشاعر:

لا يتقون الشرَّ حتى يصيبهم ولا يعرفون الأمرَ إلا تدبرا

المذاهب الفكرية والقلق

لا شك أن الفرق والأحزاب ما هي إلا تعبير عن مشكلات المجتمع التي تنشأ فيه، وهي تشي بأن هذا المجتمع يعيش كثيراً من المتناقضات والخلافات، التي دفعت ببعض الثائرين والمتأثرين بهذه التناقضات، إلى محاولة حل هذا التناقض بالدعوة إلى تشكيل أحزاب تحمل أيديولوجيات خاصة؛ تزعم بيدها الخلاص لما يعانيه المجتمع من التناقضات؛ فرؤساء الأحزاب يجعلون أنفسهم بمثابة الأنبياء الذين بُعِثوا بالشرائع لوضع حلول للمشكلات المتفشية في المجتمع، فهم يؤمنون بأحزابهم كإيمان الرسل بشرائعهم.

وكلما كثرت الأحزاب وتناقضت كلما كان ذلك دليلاً على كثرة مشاكل المجتمع وتناقضه، وكما لا يعقل أن يبعث نبيان بشريعتين مختلفتين في نفس الزمان والمكان، كذلك من سوء الطالع أن ينشأ حزبان متناقضان في نفس الزمان والمكان.

لقد ظهر في التاريخ الإسلامي العديد من الفرق والنحل التي سجلتها كتب الملل والنحل، ولو جئنا إلى دراسة أصول هذه الفرق لوجدناها تنضوي تحت أربع فرق رئيسية هي:

سلفية، وخوارج، ومرجئة، ومعتزلة.

وإذا جاز لنا أن نشبه الفرق الإسلامية بمراحل العمر لشخص ما، فإننا نرى الخوارج يحظون بسن المراهقة من حياة هذا الشخص، لأن فترة المراهقة تمتاز بالتقلبات الكثيرة وعدم التعمق والتبصر في عواقب الأمور، وقد ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، أوصافهم بأنهم "حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام"[٨]

أما السلفية فهي تمثل طور الحكمة والنضوج والوقار، وهي تمثل نضوج العمر عندما يجنح الشخص إلى الهدوء والاستقرار والتمتع بمباهج الحياة وبما أحرزه من ثروة، مع عدم الميل إلى المناكفات والمشاحنات.

---

[٨] صحيح البخاري

أما المعتزلة فهم تعبير عن العقل الذي نال حظه الوافر من الثقافة العلمية والنزعة العقلية المادية التي تسعى إلى الشك والتحليل والتمحيص والتجريب، ثم هندسة الأمور من الناحية المنطقية، كي لا يبدو فيها تناقض أو نشاز.

أما المرجئة فهي ليست مرحلة أساسية في حياة الشخص، بقدر ما هي مرحلة طارئة فرضتها الظروف والأحداث، التي يعيشها بعض الأشخاص الرومانسيين عند إيذاء أحاسيسهم وجرح مشاعرهم، فيميلون إلى العزلة طلباً للأمن والسلام، بعيداً عن الهموم والأحزان، وهم دائمو السؤال عن السبب الذي يجعل العالم بهذه القتامة والسواد، ممتلئاً بالمآسي والكروب والأحزان!

إذن، سلفية، وخوارج، ومرجئة، ومعتزلة. هذه المذاهب الأربعة هي النبتة الأولى التي انبثقت عنها كل المذاهب والفرق الإسلامية فيما بعد، أما باقي الفرق فما هي إلا انشقاقات عن هذه الفرق، أو هي فرق قديمة جاءت بثوب جديد.

ونشأة الفرق والنحل تبدأ كرد فعل على بعضها البعض؛ فمثلاً نجد الخوارج ظهروا كرد فعل على مبادئ السلفية المحافظة، ثم من هاتين الفرقتين الواقعتين على طرفي نقيض: السلفية/ الخوارج، خرجت الشيعة كمزيج من هاتين الفرقتين.

أما المعتزلة فقد كانت بمثابة رد فعل على عقائد المرجئة القائلة بالقضاء والقدر والقسمة والنصيب، وأن الإنسان مسير وليس مخير، فجاءت المعتزلة بآراء تخالفها تماما المخالفة. ثم من هاتين الفرقتين المتناقضتين (المعتزلة والمرجئة) خرج "الأشاعرة"..

وهكذا حدث في كل الفرق.

إذن نستطيع القول بأن جميع المذاهب الفكرية العالمية، القديمة منها والحديثة، لا تخرج عن هذه المذاهب الأربعة، أو يمكننا القول بأن هذه المذاهب الأربعة مثالاً و تجسيداً لعقول البشر في كل زمان ومكان، حتى في المجتمع اليهودي أو المسيحي، لابد أن تجد نموذجاً للفرق الأربعة: المرجئة والمعتزلة والخوارج والسلفية..

وبهذا، فإن النماذج الإنسانية لا تخرج عن هذه النماذج الأربعة، وكل الفرق التي تخرج من قبل ومن بعد تنضوي تحت فرقة من هذه الفرق؛ فمثلاً عندما توضع السلفية في ظروف معينة فإنها تتحول إلى سلفية أخرى، أكثر تطرفاً، أو أكثر اعتدالاً من السلفية التي انشقت منها أو انشقت عليها، وتتخذ لنفسها اسماً جديداً، وشعاراً جديداً، لكنها لا تختلف عنها اختلافاً جذرياً، وتصبح صلتها بالفرقة التي انبثقت منها كصلة الولد بأبيه أو أمه، لابد أن يحمل كثيراً من خصال والديه وصفاتهما.

هكذا نجد الظروف المحيطة بأي فرقة لا تجعلها تتحول إلى فرقة أخرى مغايرة، إنما تتحول إلى فرقة أخرى تحمل نفس خصائص الفرقة التي خرجت منها أو عليها، لكن بثوب جديد لا يُدرك من الوهلة الأولى.

فمثلا المرجئة لو وضعت تحت أي ظرف من الظروف لا يمكن أن تتحول إلى معتزلة خالصة أو إلى سلفية خالصة، وهكذا الخوارج.. فهذه حدود لا يمكن أن تصل إليها، أو تدخل فيها لأنها ليست من طبيعتها، تماما كاللبن مثلاً فإنه في ظرف معين يتحول إلى

زبدة أو زبادي، وفي ظرف آخر يتحول إلى جبن، وفي ظرف آخر يتحول إلى بودرة..، لكنه تحت أي ظرف لا يتحول إلى شاي أو قهوة، لأن هذا يكون خارج حدوده وإمكانياته الموضوعة في أصل ذراته وعناصره.

إذن، لابد لأي مجتمع أن يحتوي بداخله هذه الفرق الأربعة الأساسية: مرجئة، معتزلة، خوارج، سلفية.. لأنها انعكاس لكل النماذج الإنسانية، والعقول البشرية، فكل عقل من العقول عَكَسَ فرقة من الفرق جَسدتْ ما بداخل هذا العقل من أفكار، وعلى هذا فالفرق ما هي إلا انعكاس لعقل رجل متدين، وليست انعكاس لدين رجل عاقل!.

إن العقل الإنساني يحتوي على نماذج جاهزة تنتظر الوقت الملائم والبيئة المواتية كي تظهر إلى حيز الوجود، فالبيئة هي التي تقوي هذا النمط وتغذيه، ليصل إلى طريقه المرسوم، كما قال تعالى: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ}[الصافات : ١٦٤].

أما بعدما تأتي الفرقة إلى حيز الوجود فإنها تستقل بذاتها وتبدأ في الاتساع والانتشار، ومع الزمن تفرز كلُّ فرقة من الفرق الأربعة السابقة في داخلها النماذج الأربعة الأساسية، فمثلاً تجد المرجئة تحتوي في داخلها على: (مرجئة، ومعتزلة، وخوارج، وسلفية)..، وهكذا في كل فرقة من الفرق.

إن هذه قوانين اجتماعية حري بعلماء الاجتماع أن يدرسوها، وهي حدثت بتمامها في الأمم السابقة، ولابد أن تحدث في الأمم اللاحقة، وهذا ما أشار إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يبين لنا فيه سنة كونية لابد من وقوعها حسب سنن التاريخ: (افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) [٩]

فعلى سبيل المثال لو أخذنا نموذج الشيعة فقد انفصلوا عن الدولة الرسمية واتخذوا لهم مذهبا يخالف مذهب الدولة الرسمي،

---

[٩] رواه أبو داوود.

وقامت بوضع عقائدها بما يخالف عقائد أهل السنة، وقد مضى على اعتزال هذا المذهب ونشأته مدة كافية من الزمن لينبت بداخله كل المذاهب الإسلامية والنماذج الإنسانية..

فالآن في داخل المذهب الشيعي تجد نموذجاً للمرجئة، والمعتزلة والسلفية، والخوارج.. كما تجد في المذهب الشيعي بعض العقول التي تحمل أفكاراً يمكننا أن تطلق عليها "سلفية الشيعة"، وهناك أيضا في أهل السنة بعض العقول التي تحمل أفكاراً يمكننا أن نطلق عليها شيعة السلفية..

القلق والتصوف

اليقين هو ما يقابل الفناء ووحدة الوجود عند المتصوفة، وهو ترك ما سوى الله عز وجل، والسعي إلى الفناء في ذات الله!. وكل ما سوى الله تعالى، يعتبر شهوة. ولما كان الجسد هو مطية الشهوة، كانت الدعوة إلى إضعاف الجسد بالصوم والارتياض، وبهذا يكون المرء قد سار في الطريق الصحيح!.. لأن أصل العباد ولادتهم على الفطرة، وأنهم في أصل خلقتهم موحدون، أي أن الأصل هو الفناء والتوحد. وشهوات النفس هي التي حالت بين الإنسان وبين هذا التوحد والفناء، فهي التي انتزعت الإنسان من فنائه الذي كان غائباً فيه، كما يُنتزع الغصن من لحائه، والرطبة من قشرتها؛ وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: {**وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**} [النور:٥٥]

والفسق هو خروج الرطبة من قشرتها، بعدما كانت القشرة ملتصقة فيها. هذا الالتصاق يقابل التصاق الإنسان في الله أو فنائه

فيه. إن الفسق هو الشيء العارض الذي ينتزع الإنسانَ من أصله، ويُلقي به بعيداً عن الله عز وجل[10].

والفسق بهذا المعنى يشبه انسلاخ الجلد عن اللحم، فكأن الفاسق يقوم بعمل ينافي الفطرة وهو سلخ جلده عن لحمه، فبقدر ما نجد في هذا الانسلاخ من الألم، نجد فيه من الانحراف عن سواء الفطرة الإلهية، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا}**الأعراف١٧٥

ويسبق هذه الآية قوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُواْ: بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}**الأعراف ١٧٢

هذه الآية فيها إشارة إلى الفطرة الإنسانية السليمة في كل زمان ومكان؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى وضع في نفس كل إنسان ما يسمى بقانون الفطرة، أو الضمير؛ وكأنه ميثاق بين الإنسان وخالقه، وهو الذي يجعل الإنسان يشعر بالندم والحرج واللوم،

---

[10] سيتم التفصيل في هذه النقطة لاحقاً عند شرح قوله تعالى: { يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ}.

عندما يرتكب معصية من المعاصي أو ذنباً من الذنوب حتى لو لم يكن هذا الإنسان مسلماً.. فإن كان هذا الإنسان لم يسمع بالقرآن ولا بنبي الإسلام، فإنه سيحاسب يوم القيامة على هذا الميثاق الإلهي المركوز في فطرته، وسيكون عقابه أو ثوابه على قدر مخالفته أو موافقته لهذا الميثاق أو الضمير!.

فعندما يقوم الإنسان بفعل شيء يتناقض مع فطرته فإنه يشعر بالكآبة والقلق..، هذا الشعور هو ما يسمى (الضمير). وسبب هذه الكآبة والقلق هو مخالفة الظاهر للباطن؛ لأن باطن الإنسان قد جبله الله على النفور من الظلم والقتل والسرقة والكذب والخديعة.. لأنها خطوط عامة في نفس الإنسان، يشعر بالقلق إذا خالفها أو عمل بما يخالفها، ويشعر بالراحة إذا سار على مقتضاها.. وهذا هو الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم منذ بدء الخليقة، وهو الذي سيحاسب عليه يوم يقوم الحساب!

إن هذا ميثاق عام موجود في نفس كل إنسان. أما الأنبياء فيوجد في نفوسهم، بالإضافة إلى الميثاق السابق، ميثاق خاص أدق وأشمل وأظهر، يكاد ينقدح في نفوسهم انقداحاً، وبالتالي هم

يسعون لإظهاره والدعوة إليه، ويبقون في قلق لحين تحقق هذا الميثاق حتى قبل تكليفهم بالنبوة، وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً}**الأحزاب٧

وارتكاب المعاصي والذنوب مثل الشوائب تماماً؛ تكون في الشيء فتفسد طهارته، وتحول بين لينه وسلاسته.. وحتى يعود الشيء إلى طهارته، لابد من التوبة التي هي بمثابة إخراج الشوائب والأوشاب من الشيء حتى يرجع إلى طهارته؛ وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً}**(التحريم٨).

والنصح في اللغة هو إخراج الشوائب من الشيء، يقال نَصَح الشيء، أي خَلُص. والناصح هو الخالص من العسل وغيره.. (سيتم البحث بالتفصيل في هذه النقطة عند الحديث عن النصح والقلق).

والمعاصي: كالسرقة، والكذب، والغش، والرشوة، والغيبة...الخ، هي التي تنتزع البشر من أصلهم الذي كانوا ملتصقين فيه. أما إذا تركوا المعاصي فإنهم يكونون قد استجابوا لربهم "فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبينه. أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول. وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها. عوائق من شهواتها ونزواتها. عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها. فأما حين تخلص من هذا كله، فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولاً. وحينئذ تستجيب بلا عائق. تستجيب بكلياتها. ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها.. وهذه هي الاستجابة في عمومها.."[١١]

والتوبة في اللغة هي الرجوع والعودة، أي العودة إلى الالتصاق والفناء. والعودة لا تكون إلا بالرجوع إلى الصراط المستقيم الذي لا صراط غيره وهو الإيمان، مثل عودة السيارة إلى الطريق المستقيم بعدما انحرفت في طرق فرعية أبعدتها عن الهدف المنشود. والطرق

[١١] سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ٥/ ٣١٦٥

الفرعية هي التي تقابل المعاصي، وهي التي تعيق السيارة عن الوصول، مثلما تعيق المعاصي الإنسانَ عن الفناء واليقين.

أما المؤشر لهذا الانحراف فهو « القلق» الذي يكون بمثابة البوصلة التي تنبه الإنسان إلى انحرافه عن سواء السبيل، وتنكبه الصراط المستقيم. وكلما ازداد الانحراف ازداد القلق، وقل الأمن والاطمئنان. والعكس صحيح؛ فكلما قل الانحراف عن الطريق المستقيم، كلما قل القلق، وزاد الأمن والاطمئنان. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام : ٨٢]**، وقوله تعالى: **{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا} [آل عمران : ١٥١]**.

وفي هذا المعنى جاء الحديث الشريف: [أن رسول الله ﷺ خط بيده خطاً ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط عن يمين الخط وشماله خطوطاً فقال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه. ثم قرأ : "وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله".

من هنا وجدنا الفَرْق بين الفقهاء والمتصوفة في التوبة والرجوع؛ فالفقهاء يقصدون بالتوبة: التوبة من السرقة، والغش، والكذب، والزنا، والرشوة، وشهادة الزور، والاعتداء.. الخ.

أما المتصوفة فيقصدون بالتوبة: التوبة من البخل، والرياء، والعجب، والحسد، وحب المدح، والثناء، والشره، وحب الجاه، والرياسة..، فيكون الفَرْقُ بين الفقهاء والمتصوفة فرق في الدرجة والرتبة، وليس فرقاً في الأصل والنوع.

يَذْرَؤُكُمْ فيه

قلنا آنفاً: إن الفسق هو خروج الرطبة من قشرتها، بعدما كانت القشرة ملتصقة فيها. هذا الالتصاق يقابل التصاق الإنسان في الله أو فنائه فيه؛ لأن الفسق هو الشيء العارض الذي ينتزع الإنسانَ من أصله ويُلقي به بعيداً عن خالقه، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ}** [الشورى : ١١]

وهذا يعني إن الإنسان ليس مقطوع الصلة بالله عز وجل، فهو متصل بالله في جميع أحواله؛ لأنه نفخة من روح الله. ويخطئ من يظن أن الله نفخ النفخة في الإنسان ثم تركه يذهب بعيداً عنه؛ لأن النفخة تعني أن الإنسان دخل فيه شيء إلهي، وبهذا فإن بين الإنسان وبين الله ارتباط وثيق. وبهذه النفخة أصبح هناك اتصال بين الله وبين الإنسان، وأصبح الإنسان جزءاً من الله؛ وهذا ما اشتبه على ابن عربي وغيره من الفلاسفة والمتصوفة فجعلهم ينادون بمذهب: «وحدة الوجود !».

يمكن تشبيه ذلك بزرع يد أو أصبع في جسم إنسان، فإن هذا الأصبع يصبح جزءاً من الإنسان الذي زُرع فيه. كذلك فإن الإنسان بهذه النفخة أصبح جزءاً من الله، وكأن الإنسان أصبح في داخل الله، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) في قوله تعالى: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى : ١١]

واختلف المفسرون في قوله تعالى (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) على تأويلات شتى؛ أقربها إلى هذا الرأي قول السدي: (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) يعني: يخلقكم فيه[١٢].

وعلى هذا فإن الله، عز وجل، لم يقطع صلته بالكون، لأن كل ذرة من ذرات الكون تسبح الله وتدرك مراده، فصدور الكون من الله الحي القيوم؛ جعل هناك ارتباطاً بين الكون وبين الله.

---

[١٢] تفسير الماوردى: النكت والعيون ج٥/ ١٩٤

لهذا عندما يصدر من الله أمر في السماء، فإن هذا الأمر يصل إلى الإنسان بطريق ما. وعندما يقرر الله إرسال رسول إلى العباد، تجد نفوس كثير من الناس يجيش فيها شوق لهذا الرسول، فيبدأ كثير منهم يتطلعون إلى هذا المجيء، كما حدث في بداية البعثة النبوية عندما كان العرب واليهود ينتظرون بعثة نبي فقام كثير من العرب بتسمية أولادهم بمحمد، رجاء أن يكون هذا الغلام هو الرسول المرسل.

إن هذا شبيه ببحيرة الماء التي يُلقى فيها حجر فيُحْدِث موجات تنداح شيئاً فشيئاً إلى أن تصل حوافها، لأنها وحدة واحدة، أو كما قال القائل:

البحر لا شك عندي في توحده   وإن تعــدد بــالأمواج والزبــد
فلا يغرنك ما شاهدت من صور   الــرب ســاري العــين في العــدد

إن هذا شبيه بالتنبؤات التي تحدث في الطيور والأسماك؛ فالطيور تطير وهي في حالة من الهيجان، وتضرب بأجنحتها بسرعة

لمغادرة المكان الذي سيحدث فيه زلزال. والأسماك تتنبأ بالتغيرات المناخية، وسرعان ما تهاجر في مجموعات عند شعورها بالزلازل أو بقدوم موجات باردة؛ فتبدأ في الطفو على سطح الماء.

ولأن الحيوانات ليست نفخة من روح الله فإنها لا تشعر بالتغيرات الروحانية القادمة من السماء، أما الإنسان فإنه يشعر بها لأنه نفخة من روح الله.

ومن خلال هذه الوحدة بين الله والطبيعة والإنسان يتنبأ بعض الناس بالأخبار المستقبلية والتغيرات الكونية التي قد تحدث في المستقبل.

ويخطئ بعض المتدينين عندما يظنون أن ألطاف الله تحيط بهم وحدهم، وأن الله يخصهم بمزيد من العناية واللطف؛ فيعتقدون أن هذه العناية خصهم الله بها لكونهم مؤمنين أو مسلمين..، وهذا قصور في فهم رحمة الله بعباده جميعاً؛ لأن الله لطيف بعباده سواء البر منهم والفاجر، وسواء المؤمن منهم والكافر، وسواء التقي

منهم والمنافق.. وإلى هذا جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ}**[الزخرف:٥]

وليس المقصود بالذكر هنا: القرآن أو وحي الأنبياء، إنما معناه ذكر الله للإنسان والاعتناء به في كل لحظة من لحظات حياته، كما يقول تعالى: **{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}** [الإنسان : ١]

إن الله لا يقطع رحماته وألطافه حتى عن أفجر الفجار وأعتى العتاة، لأن رحمة الله تحيط بالإنسان ليلاً ونهاراً..، ولو قطع الله رحمته عن الإنسان، لهلك في التو والحال، وهذا معنى قوله تعالى: **{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}** [الأعراف : ١٥٦]، وقوله: **{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا}** [غافر : ٧]

وإلى ذلك أشار الله عز وجل بقوله: **{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ}** [يونس : ١٢]

فلم يقل: وإذا مس المؤمنَ الضرُ، إنما قال: وإذا مس الإنسان الضر، أي الإنسان، سواء المؤمن أو الكافر، البر أو الفاجر، فإن الله يستجيب له وينجيه من الضر. لأن ألطاف الله شاملة لعباده جميعاً، لكنها تخص المؤمن بمزيد من العناية والتوفيق والمدد.. وبالتالي يشعر بها المؤمن ويدركها حق الإدراك..

أما في الآخرة فإن رحمه الله تخص المؤمنين وحدهم؛ فيقطع صلته بالكفار المجرمين؛ يقول تعالى: **{وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}** [الجاثية : ٣٤]

إن الله عز وجل ينسى الكفار والمجرمين ويقطع صلته بهم ويحجب إمداده عنهم كأن لم يعرفهم يوماً ما، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ }** [التوبة: ٦٧]

إذن مصدر عذاب الكفار في الآخرة لأن الله قطع لطفه عنهم وتركهم بلا مدد أو أنعام أو لطف، أو كما قال أحد العارفين: «سبب العذاب وجود الحجاب»..

القلق والفلسفة

من أبرز الخصائص النفسية للفيلسوف الانبهار والاندهاش من الظواهر الكونية والطبيعية التي يعايشها كل الناس ولا يشعرون حيالها بدهش ولا انبهار. والفلاسفة في هذه الخصلة يتشابهون مع الأطفال إلى حد بعيد؛ حتى لكأن كل شيء في هذا الكون، بالنسبة لهم، لغزاً محيراً بحاجة إلى إيضاح وتوضيح. فهم دائمو البحث والتنقيب فيما حولهم من الظواهر والأحداث..

والإنسان تحيط به ألغاز كثيرة بحاجة إلى كثير من الإيضاح والتوضيح. فمثلاً، الظواهر الكونية تعتبر ألغازاً بحاجة إلى تفسير. وكذلك الحال بالنسبة للظواهر الاجتماعية والنفسية والغيبية...

والفيلسوف يسعى للتعمق في الكون كي يعرف مبدأه ومنتهاه. وهذا هو السبب في أن كلمة (فيلسوف) مكونة من مقطعين: (فيلو- سوف) أي بلوغ الحقيقة. وبطبيعة الحال، كانت المواضيع التي ستتركز عليه أنظار الفلاسفة منذ أقدم العصور هي الكون بظواهره الطبيعية. لأن ظواهر الطبيعة هي البادية مباشرة أمام

حواسهم. أضف إلى هذا سطحية الثقافة الإنسانية في ذلك الزمن الغابر البعيد، وهذا هو السبب في أن أوائل الفلاسفة في الوجود أطلق عليهم "فلاسفة الطبيعة"؛ لأنهم اتجهوا إلى ظواهر الكون والطبيعة يبحثون في مبدأها ومنتاها؛ فبدأوا يضعون التفسيرات العلمية للرياح والأمطار والسحب والزلازل والبراكين والمد والجزر والبرد والحر...الخ. وقبل ذلك كانت تلك التفسيرات الطبيعية تفسر تفسيرات أسطورية تنسب إلى الآلهة التي تترصد الشر والعدوان بهذا الكون وساكنيه.

ومع تقدم الوعي الإنساني، تقدمت الفلسفة خطوة أخرى؛ فبدأت أنظار الفلاسفة تتجه إلى تفسير الظواهر الاجتماعية والاقتصادية كالملكية الفردية والروابط الأسرية والعلاقات الزوجية.. وبدأ أفلاطون، الذي جاء بعد فلاسفة الطبيعة، بوضع أسس المدينة الفاضلة التي تحكمها القوانين العادلة وبدأ بتقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية متمايزة، وهكذا...

إذن، الدهش والانبهار والفضول.. أولى خصال الفيلسوف. أما ثاني هذه الخصال، والتي لا يخلو منها فيلسوف على الإطلاق، فهي القلق. وهذا ما سنقف عنده طويلاً على صفحات هذا الكتاب.

القلق وخطبة الجمعة وكرة القدم

يلجأ الإنسان بشكل غريزي إلى وسائل الترفيه للتسلية والخروج من السآمة والملل..؛ لأن البشر كائنات محبة للاستطلاع والبحث الدائم عن الاستثارة والتجديد. والبحث الدائم عن الاستثارة والتجديد يتبين من خلال ابتكار الإنسان ألعاب التسلية والترفيه والمغامرة.

وقد جعل الله عز وجل للمسلمين خطبة الجمعة تؤدي هذا الغرض في نفس المسلم. لكن مع تقدم الحضارة وابتكار الفنون ووسائل اللهو، تراجعت خطبة الجمعة عن الاستئثار بهذا الدور؛ كما جاءت الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا}** [الجمعة : ١١]

لذلك فإن الله عز وجل لم يجعل خطبة الجمعة للتسلية والترويح والاستثارة، لأن الإنسان سيبتكر وسائل للتسلية والترويح والاستثارة تفوق خطبة الجمعة بأضعاف، إنما جعلها خالصة لذكر الله، وهذا ما يجب على الخطباء مراعاته والتركيز عليه، بدلاً من

التركيز على أخبار السياسة وأخبار الناس، كما قال عز وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}** [الجمعة : ٩]

فاليوم يتم توفير الاستثارة ليس من خلال الخطباء كما كان في القديم، إنما تتم الاستثارة من خلال المسرح والسينما والتلفزيون والإنترنت..، أو من خلال قراءة الأعمال الأدبية؛ حينما يخوض الأديب في أشياء نتوق إليها لكننا نخشاها. فهو يخوض في الأشياء التي تقلقنا، ومن ثم ينقلنا إليها أو ينقلها إلينا، ونحن أمنون لا نخشى عواقبها لأنه هو الذي يتحمل مسئولية هذا الخوض، فهو بذلك يحقق لنا خبرة بديلة.

ومن خلال هذه الاستثارة، يتحقق لنا التطهير الذي يخلصنا من انفعالات حبيسة بداخلنا، أو مكظومة في صدورنا.. والتطهير يحدث عندما يتم إكمال الانفعال حتى نهايته، وليس مجرد إثارته. فالاستماع أو المشاهدة أو القراءة التي تُحدث الانفعال يجب أن تنتهي بحل الانفعال الذي أثارته بادئ ذي بدء. وهذا ما يتحقق في كثير من الآيات القرآنية التي تصف مشاهد القيامة من جنة ونار

وثواب وعقاب.. ثم في النهاية يأتي عفو الله عن الذنوب وبيان رحمة الله بعباده. وفي ذلك جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}** [الزمر : ٢٣]

ومن أكثر وسائل الترفيه التي شاعت في العصر الحديث لعبة كرة القدم، التي يحاول الناس أن يخلقوا من خلالها عالماً آخر مختلفاً عن العالم المألوف الذي يحيون فيه.. عالماً ليس الهدف منه أن تمارس لعبة تنتصر فيها، إنما الهدف منه أن تنتصر وتغير المقاييس الشائعة؛ بحيث تحل كلماتُ النصر مكانَ كلمات الهزيمة. وكأن الناس عندما فشلوا في تغيير مقاييس الهزيمة في حياتهم العادية، ابتكروا لها لعبة وجعلوا لها ملعباً وعالماً كاملاً يدخلونه ليحيوا فيه وينتصروا ولو بضع ساعات. ومن ثم يصبحون في عالم آخر، عالم مخلوق من أناس أبطال لا يترددون أمام أي صراع يخوضونه وينتصرون فيه، وبالتالي فهم في مسرح حي، يضم كائنات الأحياء، مسرحاً لا يُخدَع الإنسان فيه من قبل المخرج والمؤلف والممثل بتمثيل الصراع، لأنك تجد نفسك أمام صراع حقيقي لا تمثيل فيه ولا خداع!..

هذه الجماهير المطحونة المهزومة في حياتها تدخل الملاعب لتشاهد أناساً يستخفون بالمصاعب إلى درجة التهور في سبيل النصر. لهذا فالجماهير لا تنظر إلى اللاعب نظرة تمجيد منفصلة عن ذواتهم، إنما كل فرد من الجمهور يخوض الصراع من خلاله، ويرسل خيطاً من ذات نفسه وروحه لتتجمع آلافها وتلتقي عنده.. يخوضها لحسابهم وكأنهم أنابوه عنهم ليقوم بالعمل البطولي العاجزين هم عن القيام به. وما أشد نقمتهم على اللاعب إذا لم يقم بعمله كبطل، أو إذا عمل بأنانية لكيانه المستقل، أو إذا تهاون في القيام بالبطولة التي أوكلوها إليه.. إنهم لم يجيئوا ليتفرجوا على براعة لاعب يجري وراء الكرة ليحرز هدفاً، إنما جاءوا لينيبوا عنهم بطلاً، بطولته الحقيقية أنه يواجه المخاطر وينتصر عليها. ومتعتهم الكبرى حينما يزداد الضغط على اللاعب، فيدفع الخطر ويصد الهجوم؛ لأنهم في حياتهم الخاصة يعجزون عن هذا.. إنهم ينكصون أمام الأخطار.. وهنا يريدون أن يفعلوا ما يحلمون بفعله. فاللاعب هنا ليس مجرد نجم رياضي، كلا! إنه بطل شعبي، إنه طريق الشعب للبطولة والانتصار، وكما لا تقبل الجماهير من بطلها أن يساوم أو

يهادن؛ فهي لا تقبل من لاعبها أن يقوم بعمل ليس فيه بطولة أو انتصار!.

ومن وسائل الترفيه والتسلية: السينما والتلفزيون والإنترنت.. التي حلت مكان الحكايات الشعبية وخطب الوعاظ والزعماء والمصلحين، التي كانت تروى على لسان القصاصين والخطباء البارعين، ممن يثيرون الخيال ويؤججون الانفعال.. في هذه الخطب والدروس نجد أنفسنا وكأننا أمام صراع حقيقي، من فرط صدقه والاندماج فيه.

وآية نجاح الخطيب: توحد المستمع والاندماج فيما يلقيه الخطيب. والتوحد والاندماج لا يحدث بسهولة، ولا يتم ببساطة، فهو يستغرق زمناً من الشد والجذب، وفقاً لبراعة الخطيب، حتى نسلم ونصدق ونستنيم. هكذا نجد أنفسنا أمام انفعالات نحياها كاملة ونقتنع بها تمام الاقتناع..

وينقسم الناس بعد سماع الخطبة أو الدرس إلى أقسام: قسم تنتهي انفعالاتهم بانتهاء الموعظة أو الدرس، وحينما يعودون إلى

حياتهم العادية يزاولونها كما كانوا يفعلون من قبل؛ فهم يفرقون بين الموعظة والحياة فينسَوْن حماسهم الشديد للبطولة بمجرد انتهاء الموعظة، وربما لا يتورعون في اليوم التالي عن الخداع واستجداء الشفقة وإزجاء الملق للرؤساء والمسئولين..، فهذه مسألة وتلك مسألة أخرى، وهذه ساحة بطولة وأبطال، وتلك ساحة حياة وأكل عيش لا بطولة فيها ولا أبطال!

وهناك قسم قليل من الناس يفشلون في الاندماج والتصديق ويأبى خيالها الضيق أن يرتد أو يتصور شيئاً غير ما يزاوله في حياته.. من أجل هذا يغادرون المسجد أو المكان كما دخلوه، فلم يؤثر في نفوسهم شيئا.

وهناك قسم، وهم قلة قليلة، تتأخر عودتهم من تلك الردة بعض الوقت، حينما تكون الموعظة حاضرة شديدة الوقع عليهم. فيغادرون وثمة زلزال قد حدث في نفوسهم، فتحطمت على إثره أشياء في تفكيرهم، فيخرجون وليسوا هم نفس الأشخاص الذين دخلوا، ويقضون أياماً كثيرة طلاب بطولة على نسق ما سمعوه، وباحثين عن أبطال ومخاطر وأعمال مجيدة تشيب لهولها الولدان.

لكنها دفقات الانفعال الأولى، فما هو إلا يـوم أو يومـان وتبـتلعهم دوامة الحياة مرة أخرى، فإذ بهم يعودون آحاداً صغاراً من ملايـين الصغار الذين يزدحم بهم عالم اليوم الصغير..

غير أن هناك أشخاصاً نادرين، أندر من أن تصدق وجودهم، لا يفعلون كهؤلاء أو كأولئك.. هذه القلة القليلـة تبهرهـا حكايـات البطولة والأبطال وتستبد بها وتجتمع لها عوامل كثيرة أولها: طبيعـة ثورية غير مدربة على الخضوع. ومتعتها الكبرى المعارضة والخروج على العرف المرسـوم.. وثانيهـا: علاقـات واهيـة بالعـالم المـزدحم الصغير، علاقات ليست من القوة بحيث تكبح جماح الثوري حتى يقنع نفسه أن قمة الثورية هي الخضوع.. وثالثها: اسـتعداد فطـري كامن في أصل تكوينهم.

هذه القلة القليلة تسمع الموعظة فتظل تحياها في ليلهـا ونهارهـا، وتعيش في عالمها بكل ما فيه من سحر وقيم وانفعال.. وسرعان ما ينضمون إلى عالم العظماء الذي لا يرحب كثـيراً بالغربـاء، ومنتهـى أملهم أن يكافحوا أنفسهم ونزواتهم والمغريات الكثيرة من حولهم لتتشابه حياتهم مع حياة الأشخاص الذين سمعوا عنهم.

القلق والنصح

نعود إلى معنى التوبة النصوحة، لنرى كيف تقي الإنسانَ من الهم والقلق. لا شك أن ارتكاب السيئات، واقتراف المنكرات يجلب القلق للنفس، والهم للقلب..، لأن الأصل في النفس طهارتها ونقاءها، وخلو طريقها بينها وبين خالقها، وأي شيء يقع في المنتصف- يمنع الاتصال بينها وبين خالقها- يكون سبباً للقلق والهم. فإذا أراد الله عز وجل ، بإنسان خيراً باعد بينه وبين الخطايا والذنوب، فيعيش في طُمَأْنِينة واستقرار، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}** [محمد:٢]. وقوله: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}** [الأنعام : ٨٢]

لهذا، فإن التوبة هي التي تجنِّب الإنسان الهم والقلق، لكن ليس التوبة وكفى.. إنها التوبة الخالصة التي لا تكدرها معصية، ولا تفسدها خطيئة، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التحريم : ٨]

لأن الأصل في الإنسان الطهارة والخلو من الشوائب والأوضار[١٣]؛ فاقتراف الأعمال الصالحة هو غذاء النفس الطيبة، لأن الأعمال الطاهرة تتجانس مع النفس الطاهرة، فيتحد هذان العنصران. أما اقتراف الأعمال القبيحة فإنه يؤدي- خصوصاً لدى نقي القلب- إلى اضطراب النفس وتخلخلها، والشعور بالتوتر والاضطراب والانزعاج حتى تمج النفس هذه الأشياء الغريبة وتطرحها خارجاً. هذا هو معنى التوبة النصوحة؛ لأن معنى النصح: اسْتِبْعاد وتَنْحِيَة كل ما هو دخيل على الشيء.

إن القلق الذي يشعر به الإنسان سببه تفكك الشيء المتماسك وتخلخل أجزائه، فيتعذر انطباق هذا الشيء على نفسه تمام الانطباق. أما الذي يمنع انطباق الشيء على نفسه تمام الانطباق فهي الشوائب التي دخلته واستقرت فيه. فمثلاً الذي يفسد صلابة الحديد وتماسكه، هي الشوائب الموجودة بين ذراته. والذي يحول

---

[١٣] الوَضَرُ: الوَسَخُ من الدَّسم أو غيره.

بين الباب وإغلاقه هي الشوائب الموجودة بين الباب وإطاره. لـذا، إذا عمد الإنسان إلى إدخال الشوائب في الشـيء الصـالح أفسـده، وهذا ما نسميه "الغش". والنصح هو التخلص من هذه الشـوائب الداخلة في الشيء كما قال تعالى: [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**..]

يقول ابن منظور[١٤]:

١- النصح: نقيض الغش، وعليه فإن النصح هو إخراج الشوائب من الشيء بعدما دخلت فيه، يقال نصح الشيء إذا خلُص، والناصح هو الخالص من العسل، وكل شيء خَلُصَ فقد نصح. وأصل النصح الخلوص، والتوبة النصوح: الخالصة..

٢- يقال نصحت فلان، أي صدقته، ولم أُدخل في كلامي معه أي كلام كذب لا أصل له ولا حقيقة. أي إن الناصح يُصفِّي كلامه، ويخلص نصيحته من الشوائب التي تكون موجودة فيها.

---

[١٤] ابن منظور: لسان العرب، جـ٦ / ٤٤٣٨

٣- يقال نصحت الثوب إذا خطته، وقميص منصوح أي مخيط؛ لأن القميص الممزق تكون قد تفرقت أجزاءه وابتعدت قطعه فلم يعد ينطبق على نفسه تمام الانطباق لدخول الفراغ بين أجزائه، وكأننا بتخييط أجزائه نخرج الشوائب من بين أجزائه. والشوائب هنا هي الفراغ الذي وُجد بين قطعه وأجزائه. وتمزق القميص وابتعاد قطعه وأجزائه عن بعضها، يحدث قلقاً في نفس صاحبه.. ولا تهدأ نفسه، وتسكن روحه إلا أن يلملم أجزاءه، ويعيد رتقه وتخييطه.

٤- أرض منصوحة: متصلة النبات بعضه ببعض، يقال نصح الغيث البلاد نصحاً إذا اتصل نبتها فلم يكن فيه فضاء ولا خلل، وكأن الأرض الذي يتتابع نباتها لم تدع للهواء أو الفراغ سبيلاً ليدخل منه.

٥- نصح الرجلُ الماءَ نصحاً: شرب حتى ارتوى، وكأن الرجل إذا امتلأ بطنه بالماء لم يدع للهواء في المعدة مكاناً ولا متسعاً..

هكذا نرى جميع معاني النصح تحوم حول: العمل على تماسك الشيء، والتحامه، وعدم تفككه، وتبعثره، وسد الفراغ بين أجزائه.. لأن تماسك الشيء يكون بعدم إدخال كل ما هو غريب عن معدنه وجوهره بداخله.

القلق والغش

حقيقة الغش أن يَدخُل في الأمر ما ليس منه[15]. فإذا كان معنى النصح: إخراج الشوائب من الشيء ليصبح خالصاً. فإن الغش هو إدخال الشوائب في الشيء الخالص ليصبح مغشوشاً. فإدخال الشوائب في الشيء النقي الخالص، هو الغش كما سنرى في المعاني التي أوردها ابن منظور لمعنى الغش[16]، والتي منها :

١- **الغشش**: المشرب المكدر، أي الذي دخلته الشوائب فأزالت صفاءه ونقاءه. يقال شُرْبٌ غِشَاشٌ، أي قليل؛ لأن الماء ليس بصاف ولا عذب. وبالتالي لا يَسْتَمْرِئُه شاربه، فلا يُكثِر الشرب منه لكدرته وعكره.

٢- **نوم غِشاش**: قليل؛ لأن ساعات النوم تخللها صحوٌ كثير. فالصحو، أثناء النوم، هو الشوائب التي دخلت في النوم فأفسدته.

---

[15] الزمخشري: الفائق في غريب الحديث و الأثر، ص ١٣٦

[16] ابن منظور: لسان العرب، جـ٥/ ٣٢٥٨

٣- **الغِشاش:** أول الظلمة وآخرها، يقال لقيته غِشاشاً أي عند الغروب، لأن الظلمة النامية عند الغروب، والتي لم تشتد بعد، هي بمثابة الشوائب التي بدأت تدخل على ضوء النهار الساطع، فتطفئ الضوء وتقلل من سطوعه!.

أما آخر الظلمة ففيها نفس المعنى أيضاً؛ ففي آخر الليل يبدأ ضوء النهار يتخلل ظلمة الليل، فكأن ضوء النهار هو الشوائب التي دخلت على الشيء الأصلي فأفسدته، وأحدثت فيه الخلل والاضطراب.

٤- **الغِشاش:** العجلة، يقال لقيته غِشاشاً وعلى غِشاش إذا لقيته على عجل. فالعجلة بمثابة الشوائب؛ لأنها دخلت على الهدوء فكدرته؛ فعندما يجئ إنسان إلى إنسان على عجل، فكأنه هجم، بلا مقدمات، على هذا الإنسان فأفسد سكونه واستقراره.

٥- **الغش:** النميمة؛ لأن النميمة معناها إدخال الشوائب في الشيء الصحيح لإفساده، فيصبح الشيء عند ذلك مكدراً غير خالص ولا نقي؛ ومن هذا المعنى يتفرع عدة معاني منها:

أ- **ثوب منمنم**: مزخرف ومنقوش، فكأن النقش هو الشوائب التي تخللت الثوب الناصع، فأفسدت لونه ونصاعته!

ب- **النمنم**: البياض الذي يكون على أظفار الأحداث، وكأن هذا النمنم (البياض) أفسد لون الأظفار النقي الخالص.

ج- **النّمّة:** هي اللمعة التي تبرق في السواد، أو السواد الذي يظهر في البياض[17]، وكأن هذه اللمعة هي الشائبة التي أفسدت ظلمة الليل الخالصة.. فهناك كانت ظلمة خالصة، فدخلت عليها لمعة ضوء فأفسدتها.

[17] محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣٤/ ١٣

القلق والفتنة

ما أحسب كلمة تشعبت معانيها وتداخلت مدلولاتها كما وجدت في مدلول كلمة "الفتنة"!.

لقد أورد ابن منظور للفتنة معان كثيرة ومتداخلة، سنقوم بإعادة النظر في هذه المعاني من ناحية تناسقها النفسي مع ما بسطناه لمعنى النصح والغش آنفاً؛ لنرى اتحاد معاني هذه الكلمات الثلاث بشكل عجيب ينم عن إعجاز اللغة العربية–لغة القرآن الكريم- بشكل يدل على أن هذه اللغة ليست من وضع مفكر أو فيلسوف، مثلما حدث في غيرها من سائر اللغات.

إن اللغة العربية لغة ربانية تعود جذورها إلى الفطرة الإنسانية في بساطتها ووضوحها، وهي غائرة بعيدة الغور تمتد جذورها، ليست إلى أول من نطقوا بها، إنما تمتد جذورها إلى بدايات الوعي الإنساني، حيث رافقته في مراحل وعيه فنشأت نشأة طبيعية لا تكلف فيها ولا تلفيق!.

نعود إلى كلمة «الفتنة» لنرى علاقتها بكلمتي النصح والغش.

يقول ابن منظور:

١ - **الفتنة:** الإحراق، يقال فتنت الفضة والذهب، إذا أذبتهما بالنار، ليتميز الجيد من الرديء ، ومنه قوله تعالى: **{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}** [الذاريات : ١٣]؛ وعلى هذا فالإحراق أو الفتنة تقابل معنى النصح من قولنا: (نصحتُ العسل) أي أخرجت شوائبه. وعلى هذا فإن الفتنة تؤدي إلى إزالة الشوائب التي تكون دخيلة في الشىء مثلما يزيل الإحراق شوائب المعدن.

فالشوائب تؤدي إلى إعاقة سير الشىء في مساره الصحيح، كما تؤدي إلى تفريق الشيء المتماسك. فعلى سبيل المثال، الشوائب التي تكون في النفوس تجلب القلق، وهي تشبه، من هذا الوجه، الشوائب التي في المعدن، فتجعلها هشة غير متماسكة. ولكي يتم تماسكها والتحامها، يتم إحراق المعدن لإخراج الشوائب العالقة بين ذراته، لأنها تحول بين التصاق ذراته وتماسكها، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الشوائب بكلمة (زَبَد) فقال: **{ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ**

وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد : ١٧].

وعلى هذا، فالفتنة أو الإحراق، تزيل الشوائب من قلب الإنسان، سواء كان الإحراق حقيقياً في نار جهنم يوم القيامة، أو معنوياً بتعريض الإنسان للبلاء الذي يحرق قلبه من شدة الحزن. فكما أن الإحراق يطرد الشوائب من المعدن، ليصبح قوياً متماسكاً لا غش فيه. كذلك يفعل الابتلاء في قلب المؤمن عندما تدخله بعض الشوائب، فينقيه ويزيل منه الشوائب التي كانت تحول بينه وبين وربه. فتجد الإنسان ينيب إلى ربه في وقت الضر والابتلاء كما جاءت الإشارة إلى هذا المعنى بقوله تعالى: **{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ}** [الزمر : ٨]

إن الشوائب في نفوس المؤمنين تزيلها الفتنة، وهي التجربة والابتلاء فيصبح المؤمن، أشد رسوخاً وأكثر صلابة. ويمكننا تشبيه الشوائب بما نسميه (الإسفين) الذي يدق في العلاقة القوية المترابطة، أو الشوكة المغروزة في اللحم، أو الطعام المتبقي في السن.. الخ. هذه الشوكة في الجسم، ستبقى مصدر قلق

واضطراب ما دامت لم تخرج، لأنه دخيلة في مكانها الذي وضعت فيه. وكل شيء دخيل، في غير موضعه، يسبب القلق والاضطراب. وهذا يفسر لنا سبب الراحة التي يشعر بها الإنسان بعد عملية البول، أو البراز، أو النخامة، أو الحجامة!..

إذن، فالمعنى الأول للفتنة هو «الإحراق»، وتحت هذا المعنى يدخل معنيان آخران هما: الامتحان والابتلاء؛ فإذا كان الإحراق يزيل الشوائب من الجماد (كالذهب والفضة)، فإن الامتحان والابتلاء يزيل الشوائب من الإنسان؛ فبالابتلاء والامتحان نتبين صدق الإنسان أو كذبه، ونكشف عن زيف الاعتقاد وهشاشته، أو عن رسوخه ومتانته، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **[أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ]** (العنكبوت ١).

فالإحراق لتنقية الجماد، أما الاختبار والابتلاء فهما لتنقية الإنسان. هذا في الدنيا، أما يوم القيامة فإن الموازين ستتبدل ويصبح الإحراق لتنقية الإنسان أيضاً، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}** [الذاريات : ١٣]. ومعناه

يوم تسعر النار يوم القيامـة، فيراهـا النـاس ويواجهـون أهوالهـا.. عندها يتميز الخبيث من الطيب، والمـؤمن مـن المنـافق..، فـالمؤمن الذي اختلط إيمانه بـبعض الشـوائب، مـا إن يـرى النـار، أو تمـس جسده حتى تذوب الشوائب التي علقت به في حياته مـثلما يـذوب الشمع إذا تعرض للنار.

وفي المقابل، فإن الكافر أو المنـافق الـذي يتخفـى بإتيانـه بعـض أعمال المؤمنين فإن هـذه الأعـمال تكـون بمثابـة شـوائب في قلـب الكافر؛ لأنها غير متجانسة مع قلبه الخبيث، وعـلى هـذا فـإن النـار تجعلها تذوب كما يذوب الشمع. فـما إن يـرى الكـافر النـار حتـى تذهب أعماله الحسنة التي كانت لصيقة به، لا جـذور لهـا في قلبـه. عنـدها يبقـى الكفـر خالصـاً بـلا تزويـق أو تنميـق. لأن الأعـمال الحسنة، التي كان الكافر يأتيها، لم ترسخ في قلبه، ولم تكن لها جذور راسخة في نفسه، لذلك تطايرت وولت عند أول هول أو فزع، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **﴿كَالَّـذِي يُنفِـقُ مَالَـهُ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ**

فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة ٢٦٤).

فالتلاشي وذوبان الأعمال الحسنة من قلب الكافر كان بسبب عدم التجانس بينها وبين قلبه. ومن المعلوم أن الشيئيين غير المتجانسين يسهل فصلهما عن بعضهما البعض. ففي هذا المثل الذي ضربه لنا المولى عز وجل، نجد أن التراب والصخر مختلفان لا يتجانسان. لذلك، فقد تخلى الصخر عن التراب، وتخلى التراب عن الصخر، عند أدنى هطل من المطر، وأصبح الصخر ناصعاً صلداً لا يستقر عليه شيء. وهكذا يؤول مصير الأعمال التي يأتيها الكافر رياء في حياته الدنيا.(سيتم البحث لاحقاً في هذا المثل بالتفصيل عند الحديث عن الشبه بين الداخل والخارج).

٢- الفتنة هي: «وسواس الصدر»، كأن يكون الإنسان على قناعة بنزاهة شخص ما، ثم يدخل وسواس وشك إلى قلب هذا الإنسان فيفسد النزاهةَ، ويكدر الصفاء.

هنا، يشعر الإنسان بالقلق من وجود تلك الشوائب. والقلق، في حقيقة أمره، تقلقل واضطراب، يشبه قالب الطوب الذي يوضع على أرض غير سوية، فيتقلقل ويضطرب من أدنى حركة أو ملامسة.. إنه تقلقل في الحجر ولا شك، لكنه متى أحس به واضعه أو بانيه، فإن هذا التقلقل في الحجر ينتقل إلى تقلقل في القلب والصدر. وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ؟ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ؛ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)**[التوبة:١٠٩].

ولو نظرنا إلى معنى القلق في اللغة لوجدناه يعبر عن هذا القلق والاضطراب الذي يختلج في صدر الإنسان؛ يقول ابن منظور[١٨]: "القلق كلمة تدل على الانزعاج وعدم الاستقرار. يقال امرأة مقلاق الوشاح: لا يثبت على خصرها من رقته، وأقلق الشيءَ حركه من مكانه أي حركه. والقلق أيضاً عدم الاستقرار في مكان واحد، وفي حديث علي ﷺ: أقلقوا السيوف في الغمد: أي حركوها

[١٨] ابن منظور: لسان العرب جـ٥/ ٣٧٢٦

في أغمادها قبل أن تحتاجوا إلى سلها ليسهل انتزاعها عند الحاجة إليها. واللقلق هو اللسان، لأنه يتحرك أثناء الكلام".

فهذا التقلقل والاضطراب يعبر عنه الناس بتلقائية في أحاديثهم اليومية مثل (إن الفار يلعب في عبي)، ومعناه شعور بالانزعاج وعدم الاطمئنان، وهو تعبيرٌ مجسدٌ لضربات القلب السريعة التي تشبه حركة اللسان أثناء الكلام!

٣- الفتنة هي: الإعجاب بالشيء، يقال فُتِن الرجل بالمرأة وافتتن بها. لأن هذه الفتنة والإعجاب تقتضى قلق عدم السيطرة والاستيعاب، أو قلق العشق والغرام.. (وسيأتي الحديث لاحقاً عن هذه النقطة بالتفصيل).

ومعنى فتنة الرجل بالمرأة إدراكه أنها أكبر منه. لهذا، هو يريد أن يستوعبها فلا يملك لذلك سبيلا. وهنا، يهجم عليه شعور قاتل لإحساسه بعدم السيطرة عليها واستيعابها. فعندما يعجب الرجل بالمرأة ويفتتن بها، فإن هذا الإعجاب يؤدي إلى اختلال توازنه. فالرجل قبل أن يعجب بهذه المرأة كان هادئ النفس، ساكن

القلب.. فلما أُعجب بها وولهته، اختل توازنه، وتكدر هدوءه وسكونه.. عند ذلك، يسعى للتخلص من هذا القلق الانزعاج والاضطراب بمحاولة استيعاب المرأة في كيانه النفسي بوسائل كثيرة لا حاجة للخوض بها أو التعرض لها.

هكذا تتضح لنا علاقة الإعجاب بالقلق والفتنة. فهي علاقة الاضطراب والانزعاج من أولها إلى آخرها.

٤- الفتنة هي: اختلاف الناس بالآراء. وعند تصويرنا لهذه الكلمات القلائل التي أوردها ابن منظور، يتضح لنا جلياً معناها وعلاقة هذا المعنى بالقلق والاضطراب. فهنا يكون الهدوء والسكينة مخيماً على مجتمع من المجتمعات، ثم تعصف بهذا المجتمع الآراء والأفكار والصراعات، عند ذلك يُعكِر هذا الاختلاف ما يكون عليه الناس من صفو وهدوء واستقرار. وبهذا يُصبح المجتمع ممتلئاً بالغش بعدما كان خالصاً ورائقاً، لا خلاف فيه أو اختلاف.

فالرابط بين معاني الفتنة هو « القلق »، لأن الفتنة تحدث القلـق. أما المعاني الأخرى كالابتلاء والاختبار والإحـراق.. فهـي عـلاج الفتنة.

القلق والوجود

قلنا في فصل سابق أن عناصر الوجود عبارة عن ثنائية، أو زوجية، تتجسد في كل شيء من حولنا: في السالب والموجب.. في اللفظ والمعنى.. في الجسد والروح.. في القول والعمل.. في الدنيا والآخرة.. في الذكر والأنثى.. في الذات والموضوع.. في الجوهر والعَرَض.. في الحسي والمعنوي...الخ.

ولا يمكن لأي شق، أن يحيا بمعزل عن شقه الآخر، لأنه سيصبح ميتاً لا ينبض بالحياة. أما إذا التقيا؛ فسيؤدي هذا الالتقاء إلى الالتحام الذي يشبه التحام القطبين الموجب والسالب، الذي ينتج من التحامهما شحنة كهربائية يؤخذ منها الضوء والحياة.

وهنا لابد لنا من سؤال عن القوة الدافعة التي تسوق كل شق ليبحث عن شقه المفقود؟

إن هذه القوة تشبه- إلى حد كبير- الجاذبية الأرضية أو القوة المغناطيسية.. أو قل إنها تشبه اتحاد الذرات أثناء تفاعل العناصر

والأحماض. أما في عالم الإنسان فقد أصطلح على تسميتها بـ «**القلق**».

والقلق هو «الدفعة الحيوية» في هذا الوجود التي بثت الروح في ثنايا هذا الكون الفسيح. إنه قرن الاستشعار الذي ينبهنا إلى أن هناك شيئاً غير مضبوط، وهو يشبه الصوت المشوش، الذي ينبعث من (الراديو) عندما لا يكون المؤشر على موقعه المضبوط على محطة الإرسال. ولا يتم التخلص من هذا التشويش «القلق» إلا باستقرار المؤشر في موقعه المضبوط.

إننا عندما نتخذ قراراً خاطئاً نفقد راحتنا وسلامنا الداخلي ونشعر بالانزعاج، ونشعر بأن الأمور لا تسير بطريقة صحيحة، وأننا بدأنا نسلك الطريق غير الصحيح. لنفرض أننا نقود سيارة على طريق توجد عليه خطوط تحذرنا بألا نتخطاها كي لا تتعرض لمشاكل، وهناك أيضا خطوطاً بيضاء متقطعة يمكنك عبورها لتخطي السيارة التي أمامك. وهناك أيضاً لافتات توجد على جانبي الطريق للتحذير من "طريق جانبي"، أو "منعطف حاد"، أو "طريق تحت الإنشاء"..

فلو التزمنا التعليمات الموجودة على جانب الطريق لسلمنا من الاصطدام، أو الانزلاق على جانب الطريق..

وبنفس الطريقة توجد لافتات روحية في نفوسنا، فإذا أردنا أن نبقى داخل حدود حماية الله، علينا أن نتبع تعليمات اللافتات الموجودة في أرواحنا، فهي تحذرنا من القلق والخوف والارتباك.. فإذا اتبعنا اللافتات وبقينا داخل حدود الطريق، سنضع أنفسنا في المسار الصحيح.

لنفترض أننا نقود سيارتنا في طريق وبدأنا نحيد عن الطريق نحو اليمين، عندها سنلاحظ أن الطريق صار أكثر وعورة من ذي قبل، ولو قررنا الاستمرار في السير في هذا الاتجاه، سنلاحظ أننا نبتعد عن الطريق أكثر فأكثر، وأننا بدأنا نفقد راحتنا وسكينتنا ونشعر بالقلق والانزعاج..

والعكس صحيح: فلو شعرنا، بالقلق يهاجمنا فجأة دون مقدمات، أثناء سيرنا في دروب الحياة، فيجب علينا أن نتوقف ونسأل أنفسنا ما الخطأ الذي فعلناه؟

يمكننا أن نشبه القلق بالوتر المشدود في القوس؛ فعندما نشد الوتر إلى أقصى ما نستطيع، ثم نتركه ليستقر في مكانه، فإنها تحدث ذبذبة في هذا الوتر. هذه الذبذبة، في الوتر، هي الحياة!.. وهذه الحياة ما كانت لتوجد لو أننا لم ننتزع الوتر من مكانه الصحيح. لأن هذا الانتزاع هو الذي سبب التردد والحركة والحياة. أما إن استقر في مكانه وسكن فإن ذلك معناه الموت والعدم والفناء. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}** [الأنبياء : ٣٠].

القلق واليقين

اليقين هو الوجه المقابل للقلق، وهو يشبه التصاق برادة الحديد بالمغناطيس. هذا الالتصاق، هو نهاية الحركة المتوترة المشدودة، وهو بمثابة اليقين في عالم الإنسان.

يمكننا تشبيه اليقين بـ "وصول الحجر" إلى الأرض، عندما يقذف من مكان شاهق بعيد. ويسبق هذا اليقين، شيء نسميه "الاهتداء". إن الحجر الساقط على الأرض، عندما يبدأ في رحلة السقوط هذه، يكون قد اهتدى إلى طريقه الصحيح، وبدأ يسير في خطه المرسوم. وعندما يصل إلى الأرض ويستقر عليها يكون قد وصل إلى حالة تشبه اليقين في عالم الإنسان. أما إن لم يصل إلى الأرض فإنه يكون قد ضل الطريق، وانحرف عن مساره الصحيح؛ وسيبقى في قلق دائم حتى يصل إلى هدفه المنشود.

إذن، القلق، ثم الهداية، ثم أخيراً اليقين، مسميات مختلفة تطلق على حركات متعاقبة يأتي بعضها في إثر بعض. وكل حركة من تلك الحركات تُعد صورة نفسية قائمة بذاتها.

إن القلق هو البداية التي تدفع الإنسان إلى البحث عن مخرج للتخلص من هذا القلق. وعملية البحث هذه تتوج في النهاية إما بالهداية أو الضلال. هذه الصور الثلاث (القلق، ثم الهداية، ثم اليقين) جاءت إليها الإشارة في قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام:

أولاً: الصورة الأولى: **(القلق)** بدت في القوة الدافعة لإبراهيم عليه السلام للبحث عن الوحدانية. والقلق كان يبدوا في هذا المشهد جلياً في حيرته الشديدة أمام الشمس والقمر والنجوم..، لدرجة أنها أودت به إلى السقم والمرض، قبل أن يصل إلى حسم هذا الصراع النفسي الرهيب؛ وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)** (الصافات:٨٨، ٨٩).

فالسقم، هنا، ليس كما يقول المفسرون بأنه كذبة بيضاء من إبراهيم كذبها إبراهيم على قومه كيلا يصطحبوه معهم للاحتفال للأصنام. كلا، إنما السقم كان نتاجاً للصراع النفسي الرهيب، الذي يعتمل في نفس إبراهيم، عليه السلام، قبل أن يصل للحل الذي ينسجم مع ما هو موجود في فطرته وأصل نشأته.

ثانياً: الصورة النفسية الثانية هي: (الهداية أو الضلال)، فهي دائماً تأتي عقب القلق، وإلى هذه الصورة جاءت الإشارة بقوله تعالى: {**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ: أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ؟**} [الأنعام : ٨٠] وقوله تعالى: {**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**} [الأنعام : ٧٩].

وليس بمستغرب أن نجد جميع الكلمات التي تتكون مادتها من الحروف الثلاثة: الهاء والدال والحرف المعتل، أن يكون فيها معنى السكون والهدوء والاستقرار.. فيكون إما هدوءاً حسياً أو معنوياً، ونأخذ بعضاً من هذه الكلمات على سبيل المثال:

١- يقال **هديته الطريق هداية**، أي تقدمته لأرشده، وكل متقدم فهو هاد. وهذا فيه معنى الهدوء لأن المتقدم والهادي يبعث الاطمئنان في قلب الذي يسير وراءه، ومنه قوله تعالى: {**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**} [الملك : ٢٢].

٢- **الهدية،** وهي ما أهديت بلطف إلي ذي مودة، لأن الهدية تكون باعثة للهدوء والسكينة في نفس المهدى إليه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [**تهادوا تحابوا**][١٩].

٣- يقال جاء فلان يهادي بين اثنين، إذا كان يمشى بينهما معتمداً عليهما؛ لأن في مشيته تلك تبدو السكينة والتراخي والهدوء.. وأيضاً لشعور المتهادي بالطمأنينة والسكينة لأنه معتمد في مشيته على رجلين سوف يسندونه إذا أوشك على السقوط.

٤- **الهدي** هي الزوجة كما قال عنترة:

أَلا يا دارَ عَبلَةَ بِالطَويِّ كَرَجعِ الوَشمِ في كَفِّ الهَدِيِّ

فالهدي أو الزوجة تكون باعثاً على الهدوء والاستقرار كما جاء في قوله تعالى: [ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها] وقد تقدم بحثه.

٥- **الهدي** هي: ما أهدي إلى مكة من النعم، كما قال تعالى: **{حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ}** [البقرة: ١٩٦]؛ لأنه يكون باعثاً على

[١٩] السنن الكبرى للبيهقي ج٦/ ١٦٩

الهدوء ، لأن الحاج أو المعتمر يشعر بالهدوء والراحة بعدما يبلغ الهدي محله، فيشعر بأن الله تقبل منه وتاب عليه.

ثالثاً: الصورة النفسية الأخيرة هي: (اليقين)، وهو يلي الهداية، إن سارت في طريقها الصحيح. وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}** [الأنعام : ٧٥].

هنا أعود فأقول: إن الصور النفسية الثلاث (القلق، ثم الهداية، ثم اليقين) لها علاقة بمصطلح «تشوش الهوية»؛ لأن جانباً من جوانب البحث عن الهوية يكمن في السعي للتزود بإحساس أكثر وضوحاً حول الذات المشوشة؛ وهذا ما يدفع الكتّاب والأدباء والشعراء للكتابة، بحثاً عن الهوية أو عن الأسلوب المناسب لهم في الحياة.

عقلانية إبراهيم عليه السلام

قبل أن ننتقل للحديث عن نقطة أخرى أود الحديث عن عقلية إبراهيم عليه السلام، حيث كان ذا نزعة عقلانية منطقية تميل إلى المحسوس بصورة كبيرة، وقد كان عقلانياً يسأل عن سبب كل شيء؛ فهو يشبه العلماء التجريبيين الذين يميلون إلى الحس والتجريب والمنطق..

وقد ظهرت هذه العقلية المنطقية من خلال:

١- النقاش العقلاني مع النمرود الذي كان راح يتحاور معه بشكل عقلاني كما أشارت الآيات الكريمة: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ؛ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ! قَالَ: أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ؛ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ. وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**[البقرة:٢٥٨].

٢- وظهرت نزعته العقلانية في بداية تأمله عند بحثه عن خالق السموات والأرض:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (الأنعام٧٥-٧٩).

٣- وظهرت نزعته العقلانية في حواره مع قومه حينما حطم أصنامهم ووضع الفأس في رقبة كبيرهم: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ! قَالَ: هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ؟ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟﴾ (الشعراء ٧٠-٧٣).

٤- وظهرت نزعته العقلانية في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى! قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ بَلَى!. وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٠]

٥- وظهرت نزعته العقلانية في حواره مع الملائكة عندما جاءوا يبشرونه بالغلام: **{قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟}**[الحجر:٥٤].

ثم ننظر كيف تدرج الله عز وجل مع إبراهيم ليجتث هذه النزعة العقلانية من تفكيره:

١- رزقه الله بغلام في شيبته وكبرته كما قالت زوجته: **{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}** [هود:٧٢] وقوله: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}** [إبراهيم : ٣٩]

٢- أمر الله عز وجل لإبراهيم بأن يذبح ولده. وهذا طلب غير عقلاني من وجهة النظر السطحية، كي يعلمه أن يسلم أمره إلى الله دون تفكير في عاقبة أي أمر عندما يكون من الله عز وجل.

٣- أمر الله عز وجل لإبراهيم أن يترك زوجته وابنه في واد غير زرع، لا أنيس فيه ولا جليس، كي يعلمه التوكل، والاعتماد،

وتفويض الأمر لله دون تفكير في الأسباب العقلانية كما أشارت الآيات:

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم : ٣٧]

الفصل الثانى

القلق وأوقات الصلاة والخشوع

الخشوع في الصلاة

الخشوع في الصلاة هبة يهبها الله من يشاء من عباده. بل إن عـدم الخشوع في الصلاة عقاب، يعاقب به الإنسان ليحرم لذة لا يعـرف حلاوتها إلا من ذاقها. والخشوع في الصـلاة، شـبيه بـالنوم الهـانئ المريح بلا كوابيس. وعندما لا يجد المصلي في صلاته الخشوع الـذي ذاق لذته وعرف حلاوته من قبل، يشعر مثـل شـعور مـن لم يـذق طعم النوم الهانئ المريح، فيبحث عنه بكل الوسائل وشتى السـبل، وأحيانا يحاول إحضار الخشوع بوجبة دسمة، أو بفنجـان قهـوة أو بكأس شاي، أو بعقار منشط أو مثبط، لكنه قلما ينجح في ذلك.

ويصف علماء النفس هذه الحالة باسـم "التـدفق" أو اسـتغراق الإنسان في مشاعره. والانفعالات في حالة "التدفق" ليسـت مجـرد انفعالات منسابة تسير من وجهة معينة، بل انفعالات إيجابية، مليئة بالطاقة تنظم قواها مع ما يجـري مـن فعـل راهـن. فـإذا مـا تملـك الإنسان الملل، أو الاكتئاب، أو التوتر، أو القلق..، فإن ذلك يحـول

دون تدفق المشاعر. وتدفق المشاعر ما هو إلا خبرة يمر بها كل إنسان تقريباً من وقت لآخر.

والعلامة المميزة لتدفق المشاعر: الشعور بالفرح التلقائي، أو النشوة إلى أقصي حد، إنه حالة يكون فيها الإنسان مستغرقاً تماما فيما يفعله، يركز انتباهه فيه، يمتزج وعيه به. وتدفق المشاعر حالة من نسيان الذات، عكس التأمل والاجترار والقلق. فإذا وصل الإنسان إلى حالة "تدفق المشاعر"؛ فإنه يستغرق تماماً في العمل الذي يقوم به إلى الدرجة التي يفقد فيها الوعي بذاته تماماً"[٢٠]

ومن الأمثلة على شعور التدفق عندما يستغرق الإنسان في كتاب يقرأه لأول مرة. ففي بداية قراءتنا لأي كتاب جديد نشعر بالتشوش وعدم الانسجام كلياً مع روح المؤلف وأسلوبه، ثم بعد تقدمنا في القراءة نتدفق في القراءة ونتقمص روح الكاتب ونفهم مراميه.. هنا يكون شعور التدفق.

---

[٢٠] – دانييل جولمان: الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، ص ١٣٤، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

ومن الأمثلة على شعور التدفق: انسياب الخطيب في خطبته بعـد قليل من بدايته في خطبته؛ حيث يكون مشوشاً بادئ الأمر، ثم بعد قليل يتدفق في خطبته، وينساب في درسه، ونثر كلماته.

تعاقب الأحوال والحالات

كل إنسان تتعاقب عليه فترات وأحوال بشكل دوري، ولا يدرك هذه الفترات أو يقدرها حق قدرها إلا فئة قليلة من العابدين والزاهدين، بل إن هناك صلة بين أوقات الصلاة الخمسة وحالات النفس وتقلبات المزاج. وعلى هذا لم يكن عدد الصلوات وأوقاتها شيئاً اجتهادياً متروكاً لمزاج الشخص ورغبته، إنما كانت وحياً من الله بواسطة جبريل عليه السلام.

وهناك اتصال روحاني لا ندرك كنهه، بين عالم الإنسان وعالم الملكوت، وبين عالم الغيب وعالم الشهود..، وتتنزل من خلال هذا الاتصال الرحمات والإمدادات، التي لا يدركها الإنسان العادي لكثرة ما ران على قلبه من الشهوات، ولذلك فإن أشد الأوقات اتصالاً بين عالم الإنسان وعالم الملكوت، أو بين عالم الغيب وعالم الشهود، هي أوقات الصلوات الخمس، التي تكون نفس الإنسان- في هذه الأوقات- مستعدة فيها لاستقبال الفيوضات والنفحات، أو مستعدة لتقبل الفتن والشبهات.

وساعات الليل والنهار، منها ما ينزل فيها الفيوضات والرحمات، ومنها ما ينزل فيها الشرور والشبهات، وعندها يكون للشيطان على الإنسان، أثر ذو خطر، والقلب عندها يكون مهيئاً لتلقي الشرور والفتن..، وهذا هو السر في اختيار تلك الأوقات الخمس على وجه الدقة والتحديد.

بهذا فإن أوقات الصلوات مقدرة ومضبوطة حسب أوقات نزول الرحمات وحسب أوقات نزول الشبهات. فوقت الصلاة إما وقت تنزل فيها الرحمات وإما وقت تنزل فيه الشرور والشبهات.. وصلاة المسلم في هذه الأوقات، تجعله يستقبل هذه البركات النازلة، أو تجعله يتجنب تلك الشرور الساقطة..!

وأوقات الفيوضات غالباً ما تكون في وقت صلاة الفجر وصلاة العصر. وهناك بركة كونية- لا نعلم كيفية نزولها بالضبط- تفيض على الكون فتغمره في وقت صلاة الفجر. هذه البركات لا يشهدها إلا قليل من الناس لمشقتها، لكنها عند التأمل نجدها جديرة بعناء المشقة والتعب. ومن بركة الاستيقاظ وقت الفجر تجد

من يصلي هذه الصلاة يقضى بقيـة يومـه في همـة ونشـاط، وطيـب نفس، وانشراح صدر..

نزول البركات وقت الفجر

هذه الفيوضات النازلة، تدخل في القلب كما تدخل وجبة طعام دسمة إلى المعدة؛ وكما تكون المعدة بحاجة لبعض الوقت لتهضم هذه الوجبة وتحللها وتمتصها، فإن هذه البركة النازلة على الروح حين الفجر، بحاجة لبعض الوقت لتهضمها وتحللها وتتمثلها..، والمصلي لابد أن يمكث بعدها مستيقظاً، شاغلاً نفسه بالذكر والتفكر والدعاء.. حتى لا يفقد شيئا من بركتها، فيأخذ منها نصيبه كاملاً غير منقوص، لهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النوم بعد صلاة الفجر، كما يروي البيهقي عن فاطمة، عليها السلام، أنها قالت: (**مر بي رسول الله صلى الله عليه و سلم وأنا مضطجعة متصبحة؛ فحركني برجله، ثم قال: يا بنية قومي اشهدي رزق ربك و لا تكوني من الغافلين، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس**)[21].

---

[21] السيوطي: الجامع الكبير ١/ ٢٦٩٠

ولو دققنا النظر فيمن يصلون صلاة الفجر لوجدنا على وجوههم نضارة وحيوية وبهاء، يشاهدها كل إنسان، وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}**، والمقصود بقرآن الفجر : صلاة الفجر. والمقصود بقوله "مشهوداً "ليس شهود الملائكة؛ لأن الملائكة تشهد كل الصلوات، وإنما المقصود هو مشاهدة البهاء والنضارة على وجه من يصلى هذه الصلاة خالصة لوجه الله.

أما صعوبة الاستيقاظ في الصباح الباكر، فليس كل إنسان يعاني من هذه الصعوبة؛ لأن بعض الناس يستيقظون مبكرين، وإن كانوا من غير المسلمين، والإنسان صاحب الفطرة السوية لا يجد في اليقظة المبكرة أي صعوبة أو مشقة أو تعب..، بل البقاء في الفراش هو الذي يجلب له المشقة والتعب..

ومن الناس من لا يستطيع الاستيقاظ لصلاة الفجر، وكثيراً ما يعترض في سره أو علانيته على الوقت الباكر لهذه الصلاة، ويقول إن فيها مشقة وحرج، ولكن هذا القول غير مستقيم، لأنه يقيس الأمر على شخصه ومزاجه. أما الإنسان سوي الفطرة والتكوين،

فإنه يتفاعل مع هـذه الأوقـات بشـكل تلقـائي، لـذلك تجـد غـير المسلمين الأسوياء، الذين لا يـدينون بـدين الإسـلام، يسـتيقظون مبكرين في وقت الفجر، ليمارسوا الرياضة أو القـراءة أو الكتابـة.. ويجدون في هذه اليقظة الباكرة متعة لا توصـف، وهـم عـلى قناعـة تامة بأن هذا هو أنسب الأوقات لشحن النفس وصقل الروح..

ومتى حانت أوقات الصلوات الخمس انتاب الإنسانَ قلق، وإن لم يكن مسلماً، قلق خفي لا يدرك كنهه أو مصدره؛ فتجـد الإنسـان السـوي، غـير المسـلم، يتـوق إلى قـراءة قصـيدة شـعر، أو سـماع موسيقى، أو كتابة خاطرة، أو ممارسة أي شيء فيه غـذاء للـروح.. ولو أحسن التأمل في ذاته، لأدرك أنـه بحاجـة إلى الصـلاة ولـيس للموسيقى أو الغناء.. وهكذا بـاقي أوقـات الصـلوات، وفي هـذا دليل على أن كيان الإنسان مضبوط، بشكل بيولوجي، كي يتفاعـل مع هذه الأوقات الخمسة. إنها كالقنبلة الموقوتـة التـي مـا أن يحـين وقتها التي ضبطت عليه، حتى تنفجر من تلقـاء نفسـها، وهـذا مـا جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}**(النساء١٠٣).

إن تعاقب هذه الأحوال الروحانية على كيان الإنسان النفسى، لها ما يوازيها على جسم الإنسان الفسيولوجي، وهي تشبهها إلى حد كبير. وقد أثبت "جيرس" في بحث أجراه، وجود إيقاعات يومية لدرجة حرارة جسم الإنسان. والحد الأقصى لدرجة الحرارة يبدأ من الضحى إلى بداية الليل، على حين أن الحد الأدنى من الحرارة يقع في الصباح الباكر. هذه الدورة للحرارة تحدث حتى لو كان الإنسان مستيقظاً طوال الليل، أو ملازماً للفراش طوال النهار. ووجد كذلك أن الأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث المعدل الذي ترتفع به درجات حرارتهم في الصباح، ولعل هذا يفسر لماذا يستيقظ بعضنا مبكراً وفي يسر، على حين يظل البعض الآخر شاعراً بالنعاس في الساعة الحادية عشرة صباحاً!.. وقد وجد أيضاً أن إفراز البول يتبع نفس النموذج يومياً، فتجد أن تدفق البول من الكلى يكون في حده الأدنى خلال ساعات النوم المعتادة، بينما يبلغ ذروته في الصباح. وإن كثيراً من الأحداث الحاسمة في حياتنا- مثل الولادة الطبيعية والإصابات والنوبات القلبية- تكشف على أنها

تبلغ ذروتها في الساعات المبكرة من الصـباح، بحيـث تتـزامن مـع أضعف حالاتنا الفسيولوجية[٢٢].

[٢٢] كولن ولسون: فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة فؤاد كامل ص ١٣٧-١٣٩، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

نزول الفتن وانكشاف العورات

هذا، وكما توجد أوقات تنزل فيها على القلوب البركات، فإن هناك من الأوقات ما تنزل فيها على القلوب الفتن والشرور والشبهات.. وليس شيئاً أجدى وأنفع عند نزول تلك الشرور والفتن، من الاعتصام بحمى الصلاة والدعاء، وقد جاء في الحديث: **(تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ..)**[٢٣]

إن وقت نزول الفتن على القلوب هو وقت انكشاف العورات؛ حيث إن لكل إنسان لحظة حرجة، هي ضربة لازب في حق الرجل والمرأة على حد سواء، هذه اللحظة الحرجة هي لحظة انكشاف العورات، وليس المقصود بالعورات ما يقصده الناس من عورة الجسد، إنما المقصود بالعورات اللحظات الحرجة في حياة الإنسان، كالعيوب النفسية والأخلاقية، التي قلما يخلو منها إنسان، ويحاول

[٢٣] النووي: شرح صحيح مسلم ١/ ٢٦٨

جهده أن يسترها عن الآخرين، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو دوما بهذا الدعاء: **(اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا)**[٢٤].

ولحظة انكشاف العورات غالباً ما يكون في ساعات الصباح الأولى، ومنتصف النهار، وبدايات الليل؛ لذلك نبهنا الله عز وجل إلى أخذ الحيطة والحذر في هذه الأوقات بالذات: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ: مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ، ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ}**النور٥٨

وكما تنكشف العورات، ثلاث مرات في النهار، فهناك عورات خطيرة لكل إنسان تنكشف في العام مرة أو مرتين، تقرر مصير الإنسان أو حياته، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: **{أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ، مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ}**التوبة ١٢٦ وقد أشار علماء النفس إلى هذه العورات النفسية بألفاظ أخرى فأطلقوا عليها أزمات بدلاً من عورات،

---

[٢٤] أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري ج٧/ ٤٠٢

ومنها على سبيل المثال أزمة منتصف العمر، التي يتعرض لها الإنسان كل سبع سنوات مرة، وتبدأ من سن الخامسة والثلاثين وتنتهي في سن الخامسة والخمسين[٢٥]. وخلال هذه الأزمة تتبدل أحوال الإنسان النفسية ويتعرض لكثير من الاضطراب وعدم الاتزان. إن هذه الأزمات عبارة عن صدمات نفسية تقلب حياة الإنسان رأساً على عقب وتضعه على مفترق طرق، مثل صدمة الفطام، وصدمة الذهاب إلى المدرسة، ومرحلة المراهقة..

هذه الأزمات السابقة التي يمر بها الإنسان في مراحل عمره المختلفة، تبدو كدورة يومية، يمر بها الإنسان منفردة، أو تمر به مجتمعة في يوم واحد أحياناً، على مدار يومه وليلته، لكن بشكل أخف وطأة، وأسرع زوالاً. إنها شيء لصيق بكيان الإنسان النفسى تتعاقب عليه وكأنها مضبوطة على ساعة بيولوجية خاصة بكل شخص. ثم إن هذه الأزمات تبدو كدورة شهرية، تمر بالإنسان بشكل أوضح وأجلى قريباً يقرب من شهر أو يزيد، وكأنها مرتبطة بدورة الشمس والقمر، كارتباط المد والجزر؛ وهذا ما جعل

---

[٢٥] أحمد خيري حافظ: أزمة منتصف العمر، ص١٥، أخبار اليوم، القاهرة.

القدماء من أهل السحر والتنجيم يربطون مزاج الإنسان وطالعه بالكواكب والنجوم، لأنهم كانوا يظنون أن طلوع كوكب ما يجلب على الإنسان إما السعادة وإما الشقاء، ويؤثر في مزاجه تأثيراً واضحاً.

في هذه الأزمات، يكون كيان الإنسان النفسي ونسيجه الروحي، شديد النعومة والحساسية، تؤثر فيه وتمزقه أقل المؤثرات وأضعفها، وتجعل فيه جراحاً لا تندمل وأمراضاً بعيدة الغور والخفاء.

عموم الفيوضات

نزول الأفكار عبارة عن فيوضات تنزل من السماء تعم الكون جميعاً، أو هي شيء روحاني يغمر الكون، ويسرى في ثناياه كالأثير؛ فيتلقاها كل إنسان بحسب نفسه وإيمانه واستعداده.. هذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ}**(الأعراف١٤٣). تدل هذه الآية بأن ذلك الوقت- من حياة بني إسرائيل- هيمنت على الكون أفكار ومشاعر متقاربة سرت إلى النفوس والقلوب، هي الرغبة في رؤية الإله مجسداً، أمام العين. هذه الأفكار تلقاها موسى فعبر عنها بقوله: **{رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ}** وبالتالي، فإن هذه النزعة النفسية عندما غشيت الكون، غشيت فيمن غشيت موسى وقومه على حد سواء، فاستبدت بهم الرغبة كذلك في رؤية الإله مجسداً في نفس اللحظة التي استبدت بموسى، وهي طلبه رؤية الله عز وجل. لقد كان موسى عليه السلام هناك في الجبل يطلب النظر إلى الله عز وجل، بينما كان قومه من ورائه يطلبون نفس الطلب من هارون خليفة موسى في بني إسرائيل، كما أشارت إلى ذلك آيات القرآن

الكريم: **{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ..}** الأعراف١٤٨

ومن الأمثلة على ذلك ما حدث يوم بدر عندما أنزل الله عز وجل مشاعر الرعب والفزع على ساحة المعركة، فإنه كان من المفترض أن تغمر تلك المشاعر المرعبة كلا الفريقين المتحاربين في ساحة القتال، لذلك فإن الله أنزل ملائكة لتحمي قلوب المؤمنين من هذه المشاعر النازلة حتى تشمل الكفار وحدهم، وتمنع وصولها إلى قلوب المؤمنين، وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ، فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}** (الأنفال١٢).

إن تلك الفتن أشبه بالمطر الذري الملوث الذي لا يفرق بين إنسان وآخر، كما قال تعالى: **{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خاصة}** (الأنفال٢٥). لذا، فقد كان من أسباب عدم استجابة طلب الكفار بإنزال الحجارة عليهم، أن بينهم يوجد مؤمنون، وبالتالي فلو نزلت الحجارة فلن تفرق بين مؤمن وكافر،

كما قال تعالى: {**وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**} (الأنفال٣٣) وكما جاءت الإشارة أيضا بقوله تعالى: {**لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**} (الفتح٢٥). ومعنى "لو تزيلوا" لو انفصل بعضهم عن بعض في المساكن والأعمال والأسواق..

الفصل الثالث

قلق عدم الاستيعاب

قلق عدم الاستيعاب

لو تتبعنا أسباب القلق ومصادره لوجدناها لا تخرج عن سببين اثنين: الأول عدم الاستيعاب، والثاني: التناقض والاختلاف.

وقلق عدم الاستيعاب وهو القلق الناتج عن فشل الإنسان في السيطرة على خبرة جديدة أو قديمة تواجهه في حياته. وبالتالي، يفشل الوعي في تمثلها وهضمها.. خذ على سبيل المثال : الامتحان، أو الموت، أو توقع المرض، أو الخوف من الظلام، أو عدم الفهم، أو فقدان الحب، أو الإخفاق، أو المواقف الطارئة.. الخ.

كل المواقف السابقة تسبب للإنسان قلقاً يؤلم نفسه، ويدفعه للسعي كي يتخلص من هذا القلق، هذا من جانب. ومن جانب آخر، لو بحثنا أسباب القلق، الذي اعترى الإنسان عندما واجهته إحدى هذه المواقف، لوجدناه يرجع إلى سبب واحد هو (عدم الاستيعاب).

ولا يطعن في هذا الذي طرحناه أن بعض المواقف سنجدها، عند التحليل، ترجع إلى قلق (فقدان السيطرة). لأن قلق فقدان

السيطرة هو الوجه الآخر لقلق عدم الاستيعاب، لكونه فشل في إدخال هذا الموقف إلى الوعي. أما قلق (فقدان السيطرة) فهو فشل الوعي بالاحتفاظ بهذا الشيء بعدما دخل فيه!

ونعود إلى تحليل بعض هذه المواقف السابقة:

فالرجل الذي تواجهه بعض الظروف التي تجعله ينفق ما ادَّخره وكنزه من مال مثلاً. هذا الرجل يشعر بالقلق لأنه بدأ يفقد السيطرة على ما تحت يديه من الأموال. ويشتد القلق في نفس الإنسان كلما طالت مدة مكث هذه النعمة معه حتى تألفه ويألفها!

والرجل الذي تمر به بعض الأحداث التي تجعل أصدقاءه يتنكرون له وينقلبون عليه، يشعر بالقلق أيضاً؛ لأنه بدأ يفقد السيطرة على ما كان يمتلكه من القلوب؛ مثلما حدث مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمقاطعتهم، وعدم التعامل معهم بأي معاملة، فأحسوا بكل ضيق الدنيا وضيق النفس والصدر .. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة

بقوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ } [التوبة : ١١٨].

كذلك الإنسان عندما يشعر بالجوع ينتابه القلق أيضاً، لأنه بدأ يفقد السيطرة على ما في جسمه من العناصر والفيتامينات.

عموماً، فإن الإنسان يشعر بالقلق، إذا انتزع منه أي شيء كان يملكه في الماضي، وبدأ يفقد السيطرة عليه أو الاحتفاظ به..، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ} [هود : ٩].

وقلق فقدان السيطرة بدا واضحاً في حالة أمِّ موسى عليه السلام عندما ألقت طفلها في اليم، فلم تعد تملكه أو تسيطر عليه، وهذا ما أشارت إليه الآية: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً. إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ، لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا؛ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} القصص ١٠

ويتمثل هذا القلق أيضا في الإنسان عندما يكون له عمل يداوم عليه ويشغل أوقاته، ثم يترك عمله مرغماً تحت ظرف من الظروف،

فإنه يشعر بالهم والنصب لأنه أصبح فارغاً متبطلاً بلا عمل يشغله كما كان في السابق، وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى:

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} الشرح٧.

جاءت هذه الآية في نهاية سورة الشرح، شرح الصدر، وكأنها تقرر العلاج النفساني لضيق الصدر وانقباضه؛ فتقول إذا فرغت أيها الإنسان من عمل وأنجزته، فيجب أن تشرع في عمل آخر ، حتى لا تصاب بالكآبة والقلق.

وقوله تعالى: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}** فيه معنيان:

الأول: تقريري؛ يقرر حقيقة لابد واقعة متى وقعت أسبابها وتهيأت ظروفها؛ لأنها مرتبطة ببعضها ارتباط السبب بنتيجته، مثل قولنا: «فإذا ذاكرت فانجح، أو فإذا كفرت فاشقى، أو فإذا شربت الخمر فاسكر.. » يعنى إذا ذاكرت لابد أن تنجح، وإذا كفرت لابد أن تشقى، وإذا شربت الخمر لابد أن تسكر..، وبالتالي يكون معنى الآية **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}** أي إذا خلت يداك وفرغت أوقاتك من عمل لابد أن تحزن وتنصب!

أما المعنى الثاني لقوله تعالى {**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ**} فهو الحض والنصح والترغيب على العمل وشغل الوقت وتزجية الفراغ؛ كقولنا: فإذا حكمت فاعدل، وإذا تكلمت فأسمع، وإذا أطعمت فأشبع.. فيكون معنى الآية {**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ**} أي إذا فرغت من عمل فاشغل نفسك بعمل آخر وهكذا لئلا تصاب بالكآبة والحزن..

وهذه الكآبة التي يحس به الإنسان في وقت فراغه سببها أن كيانه النفسي مفطور على الجد والعمل؛ فلا يجد أمنه واستقراره إلا في دوام الكدح والتعب.. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: {**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**}البلد٤.

« إن للعمل تأثيرات إيجابية على نفوسنا منها: تنشيط الانتباه وتركيزه، والتحكم في حركاتنا التي نستخدمها لإتمام العمل. فعندما يقلد الرسام صورة مرسومة، أو يصنع النجار منضدة موصوفة.. فإنهما يركزان انتباههما، ويشحذان إدراكهما، فيتعودان التحكم في حركات يديهما وأصابعهما وعيونهما. كما نتعود التحكم في رغباتنا ونزواتنا، والتنسيق بين مطالب العمل ومطالب الذات.

فمثلاً تستيقظ أثناء عملنا رغبات معينة في نفوسنا، لا صلة لها بالعمل الذي بين أيدينا؛ كأن أتذكر صديقاً أود أن أراه، فأؤجل هذه الرغبة إلى وقت آخر مناسب، منعاً من تعطيل العمل.. وتتكرر الرغبة ويتكرر التأجيل، ومن خلال هذا التكرار والتأجيل أزداد تحكماً في رغباتي ونزواتي، في سبيل مزيد من التنسيق بين مطالب العمل ومطالب الذات»[٢٦].

في الحقيقة هذا لا يتحقق في الأعمال اليدوية فقط، إنما يتحقق في كافة العبادات؛ فالصائم عندما يرى طعاماً شهياً يؤجل رغبة الأكل لما بعد الإفطار. وكذلك عندما نصلي جماعة ونحن في عجلة من أمرنا، نضطر إلى مجاراة الإمام في تكبيره وركوعه، فلا نسبقه أو نتقدم عليه، ولا نخرج من الصلاة قبل التسليم. كذلك عندما نسبح بعد الصلاة فلا نخرج من المسجد، أو ننهض من مكاننا حتى نكمل التسبيح الذي اعتدنا عليه بعد كل صلاة.. هذا كله يندرج تحت مفهوم الصبر والانضباط والتحكم في الرغبات.

---

[٢٦] مصطفى سويف: نحن والمستقبل، ص١٩٥ (بتصرف) دار الهلال، ١٩٩٤، القاهرة

«ومن التأثيرات الإيجابية للعمل: تنشيط ونمو وظائف التصور والتخيل بصورة صحية، بحيث يكون محكوماً بمقتضيات العمل داخل إطار محدد؛ فلا يكون نشاطاً هلامياً كشطحات الخيال وأحلام اليقظة التي تنطلق دون ضوابط أو قيود. كما تنمو قدراتنا على ملاحظة ذواتنا، ورصد أفكارنا ومشاعرنا وسلوكنا، بحيث نُدخل عليها التغيير والتعديل المتواصل»[٢٧].

وإلى فوائد العمل جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ}**(يس ٥٥).

هذه الآية تفيد بأن أصحاب الجنة لن يكونوا في بطالة دائمة، لما للبطالة من آثار نفسية ضارة على الإنسان. فأصحاب الجنة غير فارغين ولا متبطلين ولا عاطلين..، إنما هم في شغل يشغلهم، ويزجي أوقات فراغهم، لكن هذا الشغل ليس كشغل الدنيا يساق إليه بنو الإنسان مرغمين؛ إنما يؤديه وهم فاكهون مرحون. وقد

[٢٧] مصطفى سويف: نحن والمستقبل، ص١٩٥ (بتصرف) دار الهلال، ١٩٩٤، القاهرة.

جاء معنى فاكهون في لسان العرب: «فَكِـهٌ وفاكِـهٌ: طَيِّـبُ الـنَّفْسِ ضَحُوكٌ، أو يُحَدِّثُ صَحْبَهُ فَيُضْحِكُهُمْ، ويقال فاكَهَهُ: مازَحَهُ»[٢٨].

[٢٨] الفيروزآبادي: القاموس المحبط: ٣/ ٣٨٤

فقدان السيطرة

إذا كان "فقدان السيطرة" على الشيء من مسببات القلق، كما تقدم، فمن الطبيعي أن تكون السيطرة التامة على الشيء، أو التمكن منه من دواعي الأمن النفسي، والهدوء الوجداني، والاستقرار الانفعالي.. وهذا لا يحدث، بصورة خالصة في حياتنا الدنيا، كما هو المشاهد من أحوالنا نحن البشر. فالسيطرة التامة على الأشياء منحة يمنحها الله لعباده في جنات الخلد يوم القيامة، فتكون من وجوه أربعة:

الأول: السيطرة التامة على النعيم الذي يتمتع به المؤمن، فيأمن هذا النعيم ألا يفنى أو ينعدم أو ينقطع. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ} [التوبة : ٢١]**. وقوله: **{إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}** [ص : ٥٤].

الثاني: السيطرة التامة على الجسم؛ فمن خلاله يتمتع المؤمن بنعيم الجنة. وبالتالي، يأمن بألا يصيبه موت، أو مرض، أو تعب، أو نصب.. وإليه جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا**

الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [الدخان : ٥٦]، وقوله تعالى: {**لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**}[فاطر:٣٥].

الثالث: السيطرة التامة على من يجاورونه أو لا يجاورونه، فيأمن بأن لا يعتدي عليه أحد فيطرده من أرضه عنوة، كما يحدث في استعمار الدول والشعوب. وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: {**وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**} [الحجر : ٤٨] وقوله: {**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**} [الدخان : ٥١].

الرابع: العلم التام بكل شيء؛ فلا يشعر المؤمن بجهله لشىء من الأشياء، فكل الأشياء لديه واضحة بارزة، ولا يهم إن كانت أمام ناظريه أم غائبة عن عينيه، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: {**فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**} [ق:٢٢].

إذن، من خلال هذه الأشياء الأربعة يُجتث أصل الحزن من نفس الإنسان، فلا يلج الحزن إلى قلبه أبداً، وإلى هذا جاءت الإشارة

بقوله تعالى: {**وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**}[فاطر : ٣٤].

وإذا تأملنا مداخل الشيطان إلى نفس آدم عليه السلام؛ فقد كانت من هذه السبيل، فانظر إلى قوله تعالى: {**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**} الأعراف ٢٠ فقوله (**تَكُونَا مَلَكَيْن**) فيه إشارة إلى السيطرة على المكان، وفقاً لقول ابن عباس الذي كان يقرأ (**مَلِكَيْن**) بكسر اللام[٢٩]، وقوله (**تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**) إشارة إلى السيطرة على الزمان!

ومن أمثلة قلق فقدان السيطرة: عدم سيطرة الإنسان على أعضائه، مثلما يحدث مع المتصارعين؛ عندما يقوم أحدهما بالضغط على ذراع الآخر أو ظهره بأقصى ما يستطيع، حتى ليكاد يزيغ فقرات ظهره عن مكانها، أو عظامه عن مواضعها.. فإذا زال الضغط- بسلام- بعدما وصل إلى مرحلة الخطر، فإن هذا الضغط يزيد من قوة المصارع وصلابته، وفي المرات التالية يجعله أشد بأسا

[٢٩] كان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن : {إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ} بكسر اللام، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٧

وأصلب عوداً، كما يجعله يتحمل مثل هذا الضغط في المـرة القادمـة بعذاب أقل وجهد أيسر من المرة السابقة، وإلى هذا القانون جـاءت الإشارة بقوله تعالى: {**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَـادَ يَزِيـغُ قُلُـوبُ فَرِيـقٍ مِّنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ. إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**} التوبة١١٧.

إن هذه المحنة الشديدة التي تجاوزهـا المؤمنـون بسـلام- بعـدما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت- جعلتهم أقـوى إيمانـاً وأصـلب عوداً، كما جعلتهم محصنين ضد أمثال هذه المحن لو مـرت علـيهم فيما يستقبل من الأيام!

وقلق فقدان السيطرة يكون قلقاً إيجابياً في أغلب الأحيان؛ حيث يدفع الإنسان إلى الانتصار لظلمه، واسترداد حقه عنـدما يفقـد مـا كان تحت يديه من أرض، كما حدث مع الـروم عنـدما هُزِمـوا مـن الفرس، فحرضهم فقدان سيطرتهم على أرضهم إلى معاودة الكـرة والانتصار؛ وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: (**غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ، للهِ**

الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم:٥).

شهوات الإنسان

لن يرضى الإنسان تمام الرضا إلا إذا تحقق له شيء أساسي وهام، وهو عدم اشتهاء شيء من الأشياء مطلقاً، حتى لو بلغ هذا الاشتهاء مثقال ذرة أو أصغر منها. وهذا محال تحقيقه في الدنيا!

بينما في الجنة لن يشتهي الإنسان شيئاً على الإطلاق؛ فبين بين يديه جميع المشتهيات. وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ}** [فصلت : ٣١]؛ وقوله: **{وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}[الزخرف:٧١]**.

فمتى تم الحيلولة بين النفس ومشتهياتها أحسَّتْ النفس بالقلق والكمد، الذي سيؤول إلى الحزن والجزع. لذا، فإن أول دعوة يدعو بها المؤمنون بعد دخولهم الجنة: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}** [فاطر : ٣٤]. أما الكفار فقد قال الله في شأنهم: **{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}**[سبأ:٥٤].

إن اللذة التي يشعر بها الناس في حياتهم الدنيا كلذة الطعام أو المال أو الأولاد، أو النجاح.. الخ. هذه اللذات مهما بلغت من

القوة لن تصل إلى اللذة المطلقة، وستبقى يشوبها كثير من التنغيص والكدر. فالسعادة التي نشعر بها عند حصولنا على هذه الأشياء هي بعض نعيم الجنة. بل، هي بعض ما تبقى معنا من نعيم الجنة يوم كنا فيها. فهي جزء من ألف ألف جزء، إن لم يكن أقل.

هذا ما قضى به الله عز وجل على الإنسان في الحياة الدنيا. أما في الآخرة، فإن هذه اللذة التي كانت موصدة في الدنيا، فإنها تفتح أبوابها على مصراعيها أمام المؤمنين، لا يحول بينها حائل ولا يمنعها مانع، وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ}** [ص:٥٠].

ونحن لا ننكر المعنى الحرفي للآيات الذي يشير إلى أن للجنة أبواباً تفتح أمام المؤمنين يدخلون من أيها شاءوا. لكن بالإضافة إلى هذا المعنى الحرفي، فإن هناك معنى بعيداً، يشير إلى أن شهوات الجنة ومتعها- التي ترضي شهوات المؤمنين وغرائزهم- مفتوحة أمامهم. فهي سهلة لينة، لا تستعصي على راغب، ولا تمتنع على طالب؛ فهي قريبة حاضرة. وفي نفس الوقت صافية رائقة، تخلو من الكدر والنكد، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{قُلْ**

هِـــيَ لِلَّـــذِينَ آمَنُـــوا فِي الْحَيَـــاةِ الـــدُّنْيَا خَالِصَـــةً يَـــوْمَ الْقِيَامَةِ}[الأعراف:٣٢].

لكن السؤال: كيف يصل الإنسان إلى مرحلة الشبع فلا تشتهي نفسه شيئاً من الأشياء، مع أن هذه الشهوة هي نزعة إنسانية فطرية في نفس كل إنسان؟

إن انتزاع هذه الشهوة أو الشهية النهمة، جاء إليه التعبير بكلمة (غِل) في موضعين من القرآن الكريم، الأول قوله تعالى: {**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**} **[الحجر:٤٧].** والثاني قوله تعالى: {**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ؛ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**} [الأعراف : ٤٣] .

الغل والغليل

يذكر ابن منظور[٣٠] عدة معاني لهذه الكلمة منها:

١- الغل والغليل: شدة العطش وحرارته؛ يقال بعيرٌ غال وغلاّن: عطشان شديد العطش، يقال أغل إبله، أساء سقيها فأصدرها ولم يروها.. وسميت حرارة الحزن والحب غليلاً لتعطش الإنسان إلى الحب.

٢- الغل والغلول والإغلال: الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة، وكل آخذ في خفاء فقد غل، ومنه قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [آل عمران : ١٦١].

٣- الغِل والغليل: الضغن والحقد والحسد، ومنه قوله تعالى: **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}** **[الحجر:٤٧]**، يقال: غل صدره يغل غلاً، إذا كان ذا غش أو ضغن وحقد.

---

[٣٠] لسان العرب، ج/ ٥، ص:٣٢٨٧

٤- غل في الشيء وانغل وتغلغل: دخل فيه، يقال تغلغل الماء في الشجر: تخللها. ويقال لعرق الشجر إذا أمعن في الأرض تغلغل. ويقال: غل الدهن في رأسه: أدخله في أصول الشعر، ومنه حديث عائشة رضي اله عنها: كنت أغلغل لحية رسول الله ﷺ. وفي حديث المخنث، عندما قال يصف امرأة: " **إِذا قامت تَثَنَّتْ، وإِذا تَكَلَّمَتْ تَغَنَّتْ، فقال له: قد تَغَلْغَلْت يا عدوّ الله" أَي بلغْت بنظرك من محاسن هذه المرأَة حيث لا يبلغ ناظر، ولا يَصِل واصِل، ولا يَصِف واصِف"**[٣١].

إذن تتلخص المعاني السابقة في (شدة العطش- السرقة من الغنيمة- شدة الضغن والحقد- الدخول في الشيء بعمق)

أما المعنى الرابط للمعاني السابقة جميعها، فهو المعنى الأول الذي يذهب إلى أن الغل هو "شدة العطش وحرارته"، ومن هذا المعنى تتفرع كل المعاني الأخرى. فشدة العطش وحرارته تقتضي من الظمآن أن يسرق ويخون ليطفئ ظمأه، ويسد رمقه، وهذا هو المعنى الثاني. ثم إن شدة العطش وحرارته، إن لم ترو وتشفى

---

[٣١] لسان العرب لابن منظور: باب غلل ج١١/ ٤٩٩

بالشرب والـري، فإنهـا تقتضـى مـن العطشـان أن ينظـر إلى غـير العطشى، نظرة حقد وحسد على ما في أيديهم من النعمة والعافيـة. وهذا هو المعنى الثالث.

وهذه الحاجة والرغبة النفسية الملحة، تكون متغلغلـة في أعـماق نفس الإنسان، فلا تظهر للوهلـة الأولى، وإنـما يجتهـد الإنسـان في إخفائها وسترها. وهذا هو المعنى الرابع.

مشتهيات الإنسان

وإذا استعرضنا الأشياء المشتهاة لدى البشر، والتي بذرت بذراً في صميم النفس الإنسانية، نجدها مذكورة في قوله تعالى:

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ: النِّسَاءِ، وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، وَالْأَنْعَامِ، وَالْحَرْثِ. ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران : ١٤]

تذكر الآية الآنفة أن الشهوات الإنسانية تتركز في سبعة أشياء هي: (النساء، الأولاد، الذهب، الفضة، الخيل، الأنعام، الحرث). وكل شهوة من تلك الشهوات تعد مدخلاً من مداخل جهنم، كما أن كل شهوة، من تلك الشهوات السبع، تحتل مكاناً وتشغل حيزاً في نفس كل إنسان، قد تزيد عند أناس وتقل عند آخرين، وقد ينجذب بعض الناس لشهوة دون سواها؛ فتصبح هذه الشهوات السبع هي أبواب جهنم أو من مداخلها ودواعيها، كما قال تعالى: **{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}** [الحجر:٤٤]

هذه الشهوات السبع تندرج تحت ثلاثة شهوات رئيسية هي: (النساء، الطعام، المال).. وقد ذُكرت في حديث النفر الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بينما هم يسيرون في الصحراء[٣٢]..

هذه الشهوات الثلاث هي التي تُلَوِّح للبشر وتدعوهم إليها، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ. لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ}** (المدثر:٢٧-٢٩)

وقد ذهبت معظم التفاسير إلى أن معنى (لواحة للبشر): (حرَّاقة للجلود)، وهذا غير صحيح؛ لأن معنى (البشر): نوع الإنسان، وهو من البشرية وليس من بشرة الجلد، وهذا معنى البشر في القرآن جميعه، وفي سورة المدثر نفسها يقول تعالى: **(إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)**. ومعنى (لَوَّاحَةٌ): من التلويح باليد، يقال لَوَّحَ بالشيء: أَظهره ولمع به، ولوَّح بالثَّوب: أشار به ورفعه وحرَّكه ليُرى من بعيد. فكأن النار تُلَوِّح للبشر بالشهوات والملذات التي حفتها

---

[٣٢] الحديث طويل جاء في صحيح البخاري وغيره يقول: (عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ...) صحيح البخاري: ج ٨/ ٤٠

وزينتها، كي يأتوها ويقترفوها، فإذا اقترفوها جذبتهم إلى داخلها. وهذا ما يشير إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**)، ويشير إليه قوله تعالى: {**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**} [الفرقان : ٦٥] ومعنى قوله: (**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً**): إن الأشياء التي أدت إلى عذاب جهنم كان الإنسان مغرماً ومولعاً بحبها، لهذا وقع في غرامها. والغرام هو عشق الشيء والتعلق به بحيث لا يمكن الخلاص منه.

وغالبا ما يغرم الإنسان بأشياء ثلاثة: الجنس، والمال، والطعام..

هذا هو الثالوث الخبيث الذي يوقع الإنسان في المهالك ويجعله يخسر دنياه وأخراه، لأنه يتوهم أن في هذه الأشياء ظل يستظل به من لظى القلق والألم والعطش.. لكنه يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأنه ما أن يستظل بواحدة من هذه الثلاثة حتى يجد في نفسه حرارة أكثر وعطشا أكبر، فيبقى يتنقل من ظل إلى آخر، ويدور بين هذه الظلال الثلاثة على غير بصيرة وهدى، وإلى هذا

المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ. لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ}**(المرسلات: ٣٠-٣١)

وفيما يلي نستعرض شهوتي النساء والطعام بتفصيل أكثر:

أولاً: اشتهاء النساء

سوف نتناول بالتحليل الشهوة الأولى وهي النساء. ويحق لنا أن نتساءل كيف لا يشتهي المؤمنون، في الجنة، نساء بعضهم البعض، وكيف لا تمتد أنظارهم إليهن، مع أنهم على سرر متقابلين؟

يحسن بنا، هنا، أن نلقي الضوء على جانب خاص، يخدم هذا الطرح، من فكرة طرحناها سابقاً عند حديثنا عن قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}** [الروم : ٢١]

قلنا هناك ما ملخصه: إن سبب ميل أي إنسان لإنسان آخر، راجع لتوافر مزايا نفسية وخلقية في هذا الإنسان، ولا تتوافر لديه. لذا، يكون هذا الميل لإكمال النقص، وسد الخلل الذي يشعر به العاشق نحو معشوقه، كما أشارت إلى ذلك أبيات الشاعر التي استشهدنا بها هناك. وقلنا، إن لم يكن مستحيلاً، أن تجد إنساناً في هذه الدنيا تتوافر فيه كل صفاتك الناقصة تماماً، فلا تنقص عنها أو تزيد. وإلا سيبلغ الهوى درجة الهلاك!

أما في الجنة، فالوضع مختلف تماماً، لأن زوجة المؤمن تُنَشَأُ وتُرَكب له تركيباً خاصاً به، دون سواه، من خلال علم الله المطلق، بالصفات الناقصة لكل رجل وامرأة. عندها، لا يجد الرجل في عينه، هناك، من هي أجمل من زوجته، ولا تجد المرأة في عينها، من هو أجمل من زوجها، وإلى هذا الإنشاء الخاص الفريد، جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً}** [الواقعة : ٣٥]. وهنا، يصبح كل من الرجل والمرأة متطابقان ومتكاملان تكاملاً مطلقاً. ومن المستحيل أن يتحقق هذا التكامل المطلق في الحياة. إنما يتم في الجنة حتى يتحقق الهدوء والاستقرار والسكينة، لدى كل من الرجل والمرأة على حد سواء. وبالتالي، لا يصلح الرجل هناك إلا لزوجته، ولا تصلح المرأة إلا لزوجها، ولا تمد عينها إلى رجل غير زوجها، لأنها إن فعلت سيكون ذلك ذنب عقابه فيه؛ حيث تُحرم الراحة والسكينة والاستقرار مع أي رجل آخر؛ وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}** [الرحمن: ٥٦]، وقوله: **{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ**

الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} [ص:٥٢] ، وقوله: **{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}** [الصافات : ٤٨].

وعند تأمل قوله تعالى (**قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ**) نجد معناها في الآية التي تقول: **{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً}**التحريم٥

ما أعنيه هنا قوله تعالى: (**ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً**).

من الملاحظ أن كل المفسرين قالوا إن معنى هذه الآية: إن الله عز وجل سيبدل الرسول صلى الله عليه وسلم نساء غير نسائه، منهن الثيب ومنهن البكر..

لكني أقول إن معنى هذه الآية: هو تزويج النبي صلى الله عليه وسلم نساء كل واحد منهن تتصف بصفتين حبيبتين إلى قلب الرجل، وهي أن تكون المرأة (ثيباً وبكراً) في نفس اللحظة! فالمقصود بوصف البكر: طهارة المرأة ونقاء ماضيها؛ كالبكر التي لم تنكشف على رجل قط! والمقصود بالثيب: تدلل الثيب وتحببها

وتغزلها في زوجها، فهي بما لـديها مـن خـبرة، تكـون قـد أدركـت مكمن شهوة الرجل من الأنثـى، وبالتـالي فهـي عـلى درايـة كيـف تؤجج شهوة الرجل وتثير عاطفته..

هاتان الصفتان قلما تتحققان في امرأة في هـذه الـدنيا، فـإن رزق الرجل ثيباً تؤجج عاطفته وترضي شهوته، فلن يجد فيهـا مـا يبـدد قلقله وحيرته، لأنه سيبقى منغص القلب ومكدر الخاطر بأن تلـك المرأة مسها رجل غيره فيبقى منها في شك وحيرة، يدقق في كـل مـا يصدر منها من أفعال وأقوال وإشارات!..

وقد يكون الرجل متزوجاً من بكر جميل رائقة.. لكنه يحس فيهـا البرود والفتور والحياء والخفر وقلة الدراية وعـدم المبـادرة..، إمـا لقلة خبرتها وحنكتها بتلك الأمور، وإما لخشيتها إن أبدت التـدلل الزائد عن حده، أن تدخل الشك والريبة إلى قلـب زوجهـا فيسـأل نفسه: من أين تعلمت هذه الأمور؟!

لذلك كانت صفة نساء الجنة تنفي عـن المـرأة هـاتين الصـفتين، فكأنهن أبكاراً وثيبـات في نفـس اللحظـة؛ لأن نسـاء الجنـة ذوات

ماض ناصع لم تشبه أي شائبة، ولم ينكشفن على رجل من قبـل ولا مــن بعــد: {**قَــاصِرَاتُ الطَّــرْفِ لَمْ يَطْمِــثْهُنَّ إِنــسٌ قَــبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**} الرحمن٥٦

والصفة الثانية التـدلل والتحبـب والمبـادرة إلى التغـزل: {**عُرُبـاً أَتْرَاباً**} (الواقعة ٣٧). ومعنى (عُربا) كما قال المفسـرون: يسـتطعن أن يعــربن ويفصــحن عــما في نفوســهن دون خــوف أو وجــل، فالكلمات الرقيقة تتدفق منهن بلا أدنى مشقة أو حياء أو وجل..

ثانياً: اشتهاء الطعام

إن الطعام الذي نتناوله أمعن في الخفاء والتعقيد مـن مجـرد لقـم نلوكها ثم نهضمها، أو فواكه وخضراوات نشتهيها ونتلذذ بمضغها وبلعها.. إنه نظام معقد لم تفك معظم رموزه وشـفراته حتـى الآن، وإن كان العلم قد حاول أن يفسر العلاقة بينه وبين الجسم والعقـل بإعطائه النسب والأرقام، على خلاف الفلاسـفة الـذين أمعنـوا في التأمل بلا نسب ولا أرقام.

لقد أوضح بعض الذين قضوا أعمارهم في كشف أسرار الطعـام فحكموا على أنفسهم برهبانية ما كتبها عليهم أحـد- أوضـحوا أن الجسم يحتاج في الصباح غير الذي يحتاجه في المساء، بل غـير الـذي يحتاجه في كل ساعة من ساعات الليل أو النهار، وعللوا ذلك بـأن كل عضو مـن أعضـائنا لـه وقـت ينشـط فيـه، ووقـت يخلـد فيـه للسكون. وبالتالي، ما تحتاجه أعضاؤنا في وقت نشاطها غير الـذي تحتاجه في وقت هجوعهـا. وقـالوا إن مـا نحتاجـه صـيفاً غـير مـا نحتاجه شتاءً أو ربيعاً أو خريفـاً.. ومـا نحتاجـه في الحـر غـير مـا نحتاجه في البرد، وما نحتاجه في ساعات السرور والحبور غـير مـا

نحتاجه في ساعات الكآبة والفتور.. بل، ما يحتاجه إنسان غير ما يحتاجه آخر، وكل جسم يستقبل الطعام الواحد بطرائق شتى. وكل إنسان يحتاج إلى طعام في بلد غير ما يحتاجه في بلد آخر. وكل جسم يحتاج إلى نسب من الطعام ممعنة في الدقة تنقلب إلى ضد فوائدها إن اعتراها أدنى زيادة أو نقصان.

ثم هَبَّ أنك تمكنت من ذلك كله، فكيف السبيل لمعرفة هل أجسامنا قامت باستقبال الطعام وامتصاصه بشكل منظم وسليم، أو لا؟

إن الإنسان لو تمكن من هذا كله لاعترته نشوة صوفية لذيذة كالتي تهبط علينا في سوانح الأوقات من حيث نستعد لها أو نكون على غير استعداد. أما في الجنة، فإن الله عز وجل يمد الإنسان بالطعام الذي يحتاجه والذي يتناسب مع متطلباته، فلا يأكل لمجرد الأكل والشرب، إنما يأكل لشهوته للأكل والشراب، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}**[الطور : ٢٢]، وقوله: **{وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}**[الواقعة:٢١]، وقوله: **{وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ}**[المرسلات:٤٢]،

وقوله: {**يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**}[الزخرف:٧١].

الشهوة والهوى

الشهوات الثلاث، سالفة الذكر، قد تجعل الإنسان يحتال، أحياناً، ليصل إليها بطرق ملتوية. فهو لا يصرح أن وراء دوافعه تكمن هذه الشهوات، وإنما يلبسها بأشياء يجعلها خافية، عن الآخرين، للوهلة الأولى. وهنا، نطلق على هذا الشخص أنه اتبع الهوى، ولا نقول أنه اتبع الشهوات. أي اتباع الهوى يطلق، عندما يخفي الإنسان دوافعه، بتفضيله شيء عن شيء آخر؛ فتجده يؤيد رأياً ما، أو يدعو لمنهج معين، دون التصريح بأن هذا الميل والتعصب، إن هو إلا رغبة مستترة لشهوة الفرج أو البطن أو الجيب. وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ؛ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}**[ص : ٢٦].

أما إذا سعى الإنسان إلى طلب الشهوات السالفة، صراحة، دون خوف أو وجل، وانكب عليها دون حياء أو خجل ليستمتع بها، فنقول عند ذلك أنه اتبع الشهوات ولم يتبع الهوى، وفي هذا جاءت

الإشارة بقوله تعالى: **{وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}** [النساء : ٢٧].

لكن لماذا أطلق على هذه الشهوات (هوى)؟

إن هذا الاسم أطلق لأسباب منها:

١- التشابه بين الهوى والهواء. وبالتالي، فالشهوة بمثابة هواء، أي أنها خالية من الحقيقة الأبدية الخالدة. فإنه مهما طال عمر المتمتع بها فسيأتي يوم يتركها بسبب العجز أو الموت، فيعلم حينها أنه كان يقبض على الهواء، فكأنه لم يذق لذة قط، وفي هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ}** (الشعراء ٢٠٥-٢٠٧).

٢- التشابه بين الهوى والهوي (السقوط). وعلى هذا، يكون من اتبع الشهوة كالمنحدِر من مكان شاهق إلى مكان سحيق. وانظر إلى من يقع في غرام امرأة كيف تستذله، وتهوي به من عليائه ليتمسح على أعتابها، فيصبح معها في هم قائم وعناء دائم.

العلمانية وقلق عدم الاستيعاب

ليس يخفى على أحد ما من مذهب من المذاهب لاكته الألسنة، وتناقله الناس بين مؤيد ومعارض، كما حدث مع العلمانية عندما دعا لها شرذمة قليلون في بلاد المسلمين. وإنه لمن نافلة القول الحديث عن دوافع العلمانية بأنها كانت صرخة مدوية في وجه رجال الكنيسة، لاحتكارهم تفسير كل شيء. وبالتالي، فقد اتخذوا التكفير سلاحاً لتحريم التفكير، مما حذا بالمفكرين إلى الدعوة للخروج على سلطة رجال الدين.

لكن ما شأننا نحن المسلمين في تلك المعمعة التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟

إن المشكلة الأساسية تتمثل في (ضيق الضمير الديني)[٣٣] وانحصاره لدى ثلة من المثقفين، حتى لتكاد ثقافتهم الدينية تعد مفرداتها على أصابع اليد الواحدة.

[٣٣] هذا مصطلح أطلقه المفكر الجزائري "مالك بن نبي"

هذا الضمير الديني الضيق المنزوي، لدى هؤلاء، عجز عن استيعاب مفاهيم العلم المتجددة. وبالتالي، أدى بهم إلى قلق عدم الاستيعاب، ولم يكن السبيل أمامهم إلا الاختيار بين أحد الطرفين: إما العلم وإما الدين.

وللأسف، في هذه الخيرة كانت المأساة.

أما قديماً، فلم تكد تظهر تلك المشكلة أو تبين؛ لأن مفاهيم الدين في عصور الازدهار، كانت تتسع لمفاهيم الحياة المتجددة، ولأن الدين، أيضاً، كان أساساً من أسس التكوين النفسي- لدى المسلم؛ فكان هو الأصل، ومفاهيم الحياة هي الفرع. وبالتالي، كانت العلوم الدنيوية تمتزج بوعيهم الديني فيترجمها الوعي في واقع الحياة علوماً دينية. كما كان الدين، أيضاً، يتأثر بهذا الامتزاج ولا يخرج إلا وقد أصبحت لدى المسلم، آنذاك، ديانة علمية. وبهذا، امتزج العلم بالدين امتزاج اللحم والدم، وأصبح بينهما وشيجة وقربى، فلم يكد يشعر أحد بوجود أدنى عائق أمام انتشار العلم وإبداع العقل.

وبقي الأمر على هذا الحال، من الألفة والوصال، إلى أن جاءت عصور الجمود الفكري، والانغلاق الذهني.. فتوقف نمو العلم. وطبيعياً، توقفت المفاهيم الدينية عن التطور والنمو.

وكانت الطامة الكبرى يوم جاء عصر العلم بانقلاباته الهائلة، وكشوفاته الواسعة. عندها، بدأ دولاب الحياة يدور بسرعة مذهلة، وانطلقت الحياة من وهدتها شابة فتية.. لكنها في نفوس البعض كانت تعدو عرجاء كسيرة تسير على ساق واحدة، أو حتى بلا ساق، وبدأت تطير إلا أنه طيران بجناح واحدة أيضاً، هو جناح العلم دون جناح الدين. وهنا، حدث النكوص أو الفصام، وأخذ العلم والوعي الديني، في ضمائر العلمانيين، يسيران في طريقين متدابرين! وتلكم هي المأساة في عمقها، وهي عدم استيعاب وعيهم الديني لمفاهيم العلم.

المفاهيم القرآنية والاستيعاب

إن القرآن صالح لكل زمان ومكان، فهو بمثابة كائن حي يكيف نفسه مع ترقي الإنسان عبر كل العصور والأزمان، مثلما تكيف الخلية البشرية الحية نفسها مع الجسم الإنساني في كل الظروف والأحوال. لهذا؛ فإن الله عز وجل وصف القرآن بأنه (روح): **{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا}** [الشورى : ٥٢].

هذا الوصف يفيد كما أن الروح هي الأساس الذي يقوم عليه كيان الإنسان وحياته، كذلك القرآن هو (روح) الكون. والروح لابد لها أن تتكيف مع الإنسان في كل مراحل حياته؛ فنجد روح الشخص في الطفولة تختلف عن روحه في الطفولة، أو الشباب أو الكهولة! فالقرآن يشبه النهر الجاري المملوء دائما بالماء، فلا يمكن أن نجد به نفس الماء الذي كان يجري منذ لحظة؛ لأنه لا يستقر، فالنهر دائما يغير نفسه بنفسه، ومع ذلك فهو نفس النهر الذي وجد منذ زمن طويل، لكن الماء لا يبقى بل يتغير، وكذلك القرآن.

أما ما يعتقده البعض بأن النص القـرآني (نصـاً مغلقـاً) اسـتنفذ طاقته كما تسـتنفذ الشـيخوخة كيـان الإنسـان وطاقتـه؛ فهـذا هـو "التعطيل" لكتاب الله بأن يكون صالحاً لكل زمان ومكان[٣٤]..

لذلك يجب على المسلم أن يستشعر عندما يقرأ القرآن الكريم أنه يقرأ نصاً إلهياً مقدساً، وليس نصاً بشرياً كتبه إنسـان محـدود الأفـق والتفكير، معرّض للخطأ والصـواب والزلـل.. فالتفسـير القـديم ليس خطأ، إنما هو تفسير صحيح في وقته، فإذا مر وقته يصبح للآية تفسير آخر يناسب العصر ويستوعب العلم؛ لأن القـرآن يواكـب العصر، ويستوعب الزمن وليس العكس.

إن القرآن الكـريم مثـل الكـون لا تنقضـى عجائبـه ولا تقـف اكتشافاته إلى يوم القيامة، فالكون هو كتاب الله المنظور، أما القـرآن فهو كتاب الله المسطور، وستبقى الاكتشافات في هذا القرآن إلى يوم الدين، لأنه كلام إلهي جعله الله معجزة للبشر، فلا يمكن لمفسر من المفسرين أن يفسر القرآن ثم تغلق أبواب التفسير وينتهـي الأمـر، إنما ستبقى التفاسير متجددة مع تجدد القضايا في كل زمان ومكـان.

---

[٣٤] عالجت هذا الموضوع بالتفصيل وبأمثلة تطبيقية في كتابي: (المفاهيم القرآنية- قراءة أخرى).

فحقائق القرآن، كما يقول الأستاذ العقاد: "يتجلى منها في كل عصر للعارفين ما لم يتجل لسواهم، لأنه الكتاب الذي لا تنتهي هدايته ولا تنفد معارفه، والدين الحق هو الذي دوماً يسبق عقل الإنسان، وليس عقل الإنسان هو الذي يسبقه، لأن الإنسان إذا سبق دينه ودَّعه وأعرض عنه، وحقائق القرآن ومعارفه سبقت عقول الناس الذين نزل فيهم عهوداً طوالاً، ويسبقهم اليوم أطول مما سبقهم في الماضي. ولا ضير على الدين أن يثبت ويستقر، بل على الدين الصالح أن يثبت ويستقر، إنما الضير أن يفهمه زمن ولا يفهمه زمن، وأن يكون فيه حائل بينه وبين عقل الإنسان وضميره في زمن من الأزمان، وتنزه القرآن عن هذا الجمود والفهم المغلوط"[٣٥].

[٣٥] عباس العقاد: المرأة في القرآن، دار نهضة مصر، ص ١٦٥

نماذج أخرى

يمكننا إدراج تحت قلق (عدم الاستيعاب) أنواعاً عديدة من القلق الإنساني، منها على سبيل المثال: قلق الامتحان، وقلق الموت، وقلق المرض، قلق الخوف من الظلام، قلق المواقف الطارئة، قلق الغرام والهوى..

وقلق عدم الاستيعاب أو قلق فقدان السيطرة، له أوجه كثيرة مختلفة، كلها لا تخرج عن عدم الاستيعاب أو السيطرة، مثل: عدم القدرة والتمكن، أو الخوف من المجهول، أو عدم الإحاطة بالشيء.

على سبيل المثال لو أخذنا قلق عدم القدرة والتمكن: كأن نُخيِّر إنساناً بين أمرين أحلاهما مر: إما الصعود إلى السماء دون الاستعانة بشيء، أو يُطرح في النار إن هو أخفق، كما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}** [الأنعام: ١٢٥]

الشاهد هنا هو القلق والضيق المصاحب للإنسان عند عدم القدرة والتمكن من فعل شيء من هذه الأشياء. فالضيق والقلق والتوتر الذي يشعره الذي يُجبر على الصعود إلى السماء، هو نفس الضيق الذي يشعر به الذي يُجبر على الإيمان لعدم قدرته على أي من الأمرين.

إذن، فالرابط بين الصورتين هو عدم القدرة والتمكن على فعل شيء من الأشياء!.

وقلق "عدم الإحاطة بالشيء" مثل أن يكون ثلاثة أصدقاء يجلسون في مكان بعيد، ثم يتناجى اثنان منهم دون الآخر؛ فهذا يُحْدِث قلقاً لدى المنفرد لأنه لم يحط بما يدور بين الاثنين المتناجيين، ولم يستوعب موقفهم استيعاباً تاماً. والقلق النفسي هو المقصود بالحزن في قوله تعالى: **{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}** [المجادلة: ١٠]

ومن أمثلة قلق الخوف من المجهول: قلق الخوف من العمليات الجراحية، وقلق الخوف من الظلام الذي ترجع أصوله إلى الخوف

من المجهول، الذي يخيل إلينا بأن سيهجم علينا من الظلام ما لا نتمكن من السيطرة عليه، أو ما لا نتمكن من استيعابه وتمثله جيداً، فبالتالي لا يصبح في مقدورنا أو في طوع أمرنا. وقلق الامتحانات يرجع إلى عدم الاستيعاب وإلى الخوف من المجهول أيضاً.

ومن قلق عدم الاستيعاب يتفرع أيضاً: قلق الخوف من المواقف الطارئة الذي ينتج من فقدان السيطرة والتحكم، فيكون عقل الإنسان حينئذ كأنه مليء بالهواء أو كأنه انتزعت منه كل التجارب والخبرات، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا؟}** [الكهف : ٦٨].

لكن لماذا المواقف المباغتة تُحْدث قلقاً ؟

إن قلق المواقف المباغتة يرجع إلى عدم الاستيعاب؛ لأن الاستيعاب يحتاج وقتاً حتى يأخذ طريقه إلى العقل والنفس. هذا في حالة المواقف الطارئة العادية التي في مقدور البشر. أما المواقف الكبرى، التي تفوق طاقة البشر، فلا يمكن استيعابها أو تمثلها بمرور الوقت، وهذا يتضح جلياً في وصف القرآن الكريم لحال

الكافرين عند النفخ المباغت في الصور، فيرون الأهوال العظام كما قال تعالى: **{لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}** [إبراهيم : ٤٣]

فارتداد الطرف وإغلاق الجفن دليل على أن الموقف الطارئ قد تم تجاوزه وبدأ يأخذ سبيله إلى الاستيعاب والتمثل. أما هنا [**فلا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء**] أي لا يزال العقل فارغاً من أي تجربة أو خبرة سابقة، يمكن أن تُعطي الإنسانَ بصيصاً من الأمل كي يتصرف على منوالها، أو يسلك على هداها. وهذا الأمر قد أشار إليه "العبد الصالح" عند بيانه السبب الذي من أجله لا يستطيع موسى عليه السلام الصبر على ما يرى: [**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟**]، أي كيف تتصرف أمام موقف مفاجئ لم يمر في خبرتك سابقاً؟!

ومن أمثلة المواقف المباغتة موقف أم موسى: **{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا؛ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** [القصص : ١٠]

لأن إلقاءها وليدها الصغير في اليم، لم يكن عن قناعة رأي، إنـما عن إلهام وحي.. وكيف تقتنـع أمٌّ بإلقـاء وليـدها في خضـم المـوج المتلاطم، فإن لم يهلك بالغرق، هلك بالجوع أو العطش!..

هنا فقط، لا بد للعناية الإلهية أن تـدفعها لهـذا الفعـل العجيـب دون إرادة منها أو تفكير، فكانت في هذا الأمر مسيرة غير مخيرة. ثم ذهبت السكرة وحلت الفكرة، كما يقال، فأدركت أمَّ موسى طبيعةُ الأم وسجيتها، فإذ بهذا الحدث لـيس في مقـدورها أن تسـتوعبه أو تملك السيطرة عليه، فأحدث لها مـن القلـق مـا أحـدث، وأصـبح فؤادها فارغاً، خالياً من أي تجربة سابقة، أو خبرة راسخة تعينها في هذا الموقف العصيب، حتى كادت لتبدي به وتبوح. وهنا، تتـدخل العناية الإلهية، مرة الأخرى، فتربط على قلبها.

ومن أمثلة القلق الناتج عن عدم الاستيعاب، ذلك القلق الـذي تشعر به المـرأة التـي يتقـدم لخطبتهـا رجـل متـزوج. تجـدها دائبـة الإلحاح بالسؤال لمعرفة باعث الرجل على زواجه الثاني، فهي تفتش بصمت عن عيوب الزوجة الأولى، لا لشيء، إلا لتطمئن أنها تخلـو من تلك العيوب، حتى لا تواجه المصير نفسـه، فـيما يسـتقبل مـن

الأيام. وهي في حقيقة أمرها، لا تبحث عن عيوب الزوجة الأولى. إنما تبحث عن عيوبها هي، لتتأكد أنها تملك السيطرة عليها وتروضها. وبذلك تجعل نفسها أكبر من عيوبها، ولا تسمح لعيوبها أن تكون أكبر منها!.

وهناك قلق آخر، شبيه بهذا القلق السابق. بل، هما يتغذيان من شجرة واحدة، وهو القلق الذي ينتاب بعض الأشخاص عند سماعهم بوفاة صديق عزيز عليهم، كان موفور الصحة والشباب، يخلو جسده من أي مرض من الأمراض. إنها تغمرهم لهفة طاغية لمعرفة أسباب وفاته. لماذا؟ ليتحاشوا، وفق ما تصوره خواطرهم، هذه الأسباب، ويتمكنوا من السيطرة عليها واستيعابها. وبذا، يتجنبون المصير الذي لاقاه صديقهم. لأن إحساسنا بمآسي الناس راجع إلى قدر الضرر الذي يلحقنا من هذه المآسي.

ومن الأمثلة الواضحة على قلق عدم الاستيعاب: قلق الامتحان. إنه يبدو قلقاً على أشده في الطالب الذي لم يذاكر طوال العام، ولم يستوعب دروسه. حتى إذا لم يبق بينه وبين الامتحان

سوى أيام معـدودات، يبـدأ يشـمر عـن سـاعد الجـد ليسـتوعب دروسه.

فماذا يحدث عند ذلك؟

فما أن يمسـك بـمادة حتـى تقـتحم عقلـه فكـرة مرواغـة أنـه لم يستوعب المادة الأخرى، فيتركها. ثم يمسك بغيرها، فيتكـرر معـه نفس الأمر، ويبدأ يدور في حلقة مفرغة، فيتنامى القلـق في صـدره رويداً رويداً، إلى أن يجعله يترك، دروسه جميعاً.

ومن طبيعة الإنسان السعي الدائم لاسـتيعاب الأشـياء؛ فـإذا لم يستوعب الأشياء التي يحس أنها أكبر من ذاته، فإنـه يشـعر بـالقلق الذي يسيطر على روحه، وبالتالي فـإن هـذا القلـق يحـرك مشـاعره ويفقده الصبر، ويمنعه مـن الاسـتكانة والرضـوخ فتجـده يسـعى للامتلاك هذا الشيء واستيعابه والسيطرة عليه، وهـذا مـا جـاءت إليـه الإشـارة بقولـه تعـالى: {**وَكَيْـفَ تَصْـبِرُ عَـلَى مَـا لَمْ تُحِـطْ بِـهِ خُبْراً**} الكهف٦٨

ومن أمثلته القلق الذي يحس به إنسان وقع على كنـز في مغـارة. ولنفترض أن هذا الكنز كان كثيراً ومبعثراً في أنحـاء الكهـف، ولا يقدر عدة أشخاص على جمعه. نفترض، أيضـاً، أن الوقـت المتـاح، لسبب من الأسباب، لم يكن كافياً للجمع والانتقـاء. مـاذا يحـدث عند ذلك؟

إن هـذا الشـخص، سـينتابه قلـق وهلـع ربـما يـودي بحياتـه، لإحساسه بعدم السيطرة عـلى كـل هـذه الأمـوال والمجـوهرات. وبالتالي، ما أن يمسك بلؤلـؤة حتـى يطرحهـا ويمسـك بـأخرى غيرها، فيصبح حاله كما قال الشاعر:

تَكَاثَرَتِ الظِّبَاءُ على خِرَاشٍ فما يدري خِراشٌ ما يصيدُ

قلق عدم الاستيعاب وبداية الوحي

عند بداية نزول الوحي على النبي، صلى الله عليه وسلم، بدأت تتكشف للنبي، صلى الله عليه وسلم، حقائق كانت غائبة عنه، وبدأت تفيض على نفسه المطهرة علوم شتى، وبدأ يرى أموراً تخرج عن نطاق الحد والحصر. بل تعجز عن الإحاطة والوصف. فماذا حدث؟

لقد انبهر النبي، صلى الله عليه وسلم، بما رأى من آيات ربه، وأخذ يتعجل الزمن ويسابق الوقت، كي يستوعب هذه الأشياء ويحيط بها، فأدى به هذا التسرع والاستعجال إلى (قلق عدم الاستيعاب)، أو قلق عدم الإحاطة بالشيء كله. وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}**[القيامة:١٦]، وقوله: **{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}**[طه:١١٤].

وقلق عدم الاستيعاب، يتجلى لنا واضحاً في تلك الحركة المضطربة في نفس الإنسان وعلى محيّاه، عندما يزف إليه خبر بهيج، بعد طول ترقب وانتظار. فماذا يبدو عليه من انفعالات؟

تجده لا يستقر في مكان، ولا يهدأ له جنان، ويريد أن يُخْبِر بهذا الخبر كل إنسان. لا ليشاركوه في بشره وحبوره، إنما ليشاركوه في الإمساك بهذا الفرح قبل أن يفلت من بين يديه بعد أن جاء إليه. وبالتالي، هو يستنجد بالناس أن يعاونوه على الإمساك بهذا الفرح العاتي، مثلما يستنجد رجل ضعيف برجال شداد على صرع رجل مقدام!.

إن الخبر السار الذي يُنَبأ به الإنسان يبدو، للوهلة الأولى، فوق الوسع والطاقة، ويستعصي على الاستيعاب والإحاطة؛ فيستعدي الإنسان على هذا السرور أكبر عدد من الناس حتى يمكنوه من الإمساك به وترويضه، كما يروّض الثور الهائج والأسد الضاري.. وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ: هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}**[الحاقة : ١٩].

قلق عدم الاستيعاب والحسد

يتضح قلق عدم الاستيعاب في بعض الأشخاص الذين يتصفون بالخيلاء والغرور. فأمثال هؤلاء الأشخاص تجدهم ينزعون إلى السيطرة بشكل من الأشكال. فإن وجدوا أشخاصاً يبذونهم في مزية من الميزات، وخصلة من الخصال، شعروا بقلق يدفعهم إلى احتوائهم والسيطرة عليهم!

وإلى هنا يمكننا أن نطلق على هذا الانفعال النابت في النفس عند هذه اللحظة (الغيرة). أما إذا زادت الغيرة عن هذا فإنها عندئذ تدخل في دائرة أخرى تسمى (الحسد)!. والحسد في أبسط معانيه عجز على أن نصبح أكبر من الآخرين، الذين يتمنعون عن الذوبان في ذواتنا، فنبدأ عند ذلك في تصغيرهم حتى لا نذوب نحن في ذواتهم، أي أننا بعدما فشلنا في احتوائهم واستيعابهم، نصاب بقلق خوف أن يستوعبونا هم أو يحتوونا. وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ: هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ!}** [الأحقاف: ١١].

وهو نفس معنى المثل الشعبي: "اللي ما يطول العنب يقول عليه حصرم!"

وأبرز الأمثلة على هذا القلق ما تمثل في النفسية اليهودية. فاليهود أحرص الناس على حياة. لذلك، فهم غارقون في الشهوات والملذات.. هذا الإغراق أدى بهم إلى الإخفاق والفشل عن الارتفاع إلى مستوى الإيمان الباسق الرفيع.. عندها أحسوا بأحاسيس الذل والهوان. فكان المخرج للتخلص من هذه الأحاسيس المؤلمة هو محاولتهم جرّ المؤمنين إلى مستنقع الرذيلة الغارقين فيه فيكونون سواء: **{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}** [النساء: ٨٩]

وقوله تعالى: **{هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}** [المائدة:٥٩]

وقوله تعالى: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}** [البقرة: ١٠٩]

إن الحسد واحد من أهم أسباب انتشار التعصب والعنصرية في العصر الحديث، حيث نجد المعدمين يحسدون الأثرياء، والأمم الفقيرة تحسد الأمم الغنية، والنساء يحسدن الرجال على نفوذهم في المجتمع وسلطانهم في السياسة والحكم.

والسؤال هنا: لماذا شاع الحسد في العصر الحديث؟

إن مرجع ذلك كله إلى تقدم التكنولوجيا وازدياد أوجه النشاط الإنساني كالقراءة والكتابة والصحافة والكتب والمجلات والإنترنت والإذاعة والتلفزيون.. وتلك الوسائل هي التي أتاحت للإنسان في العصر الحديث أن يتعرف على أحوال الملايين من البشر الذين تفصلهم عنا البحار والمحيطات.. وبالتالي فقد أصبح الفقير يرى بعينيه ويسمع بأذنيه كيف يعيش الثري في بذخ وبحبوحة من رغد العيش ومتع الدنيا، في حين أنه يعاني القلة والفاقة والذل والهوان!

بهذا اتسع نطاق الحسد فشمل العالم كله بعد أن كان محصوراً في حيز محدود؛ لأن نطاق الحسد قديماً كان لا يتعدى الجيران والأقرباء والأصدقاء..

ولا يتبادر إلى الذهن إن مرجع هذا التأثير إلى الدعاية فحسب؛ فالدعاية لا تخلق شعور الحسد والكره، لكنها تستغله وتوجهه.

إن الإنسان في العصر الحديث بداخله شحنة ضخمة وطاقة هائلة من التذمر والسخط وعدم الرضى عن حياته، لأنه يشعر بالنقص والحرمان والعوز وأنه أقل مما عليه الآخرون.

فالإنسان العصرى يشعر في قرارة نفسه بمستواه الضحل بالنسبة للإنسانية، ويجد الفارق كبيراً بينه وبين الواقع، فتراه حائراً لا يدري كيف يصل إلى ذلك المستوى الذي يتطلع إليه، وعندئذ يتملكه الغيظ لهذا العجز فيندفع في تيار السخط على الناس أجمعين.

وأضرب لذلك مثلاً بما نراه ونسمعه من عوام الشيعة حينما يتفوهون بألفاظ وعبارات غاية في البذاءة والحقد ضد الصحابة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم. ولو بحثت عن هؤلاء الذين

يتفوهون بتلك البذاءات لوجدتهم من الفئات المطحونة البائسة التي لا تكاد تملك قوت يومها، ولا تصل إلى المستوى العالي التي تراه فيمن حولها، فينشأ في داخلها ثورة من الحقد والحسد على وضعها المزري، لكنها لا تستطيع توجيه ثورتها إلى رموزها المقدسة الذين يعيشون في رغد العيش وفي الأبهة والنعيم، لأن تلك الرموز المقدسة أوقعت في نفوسهم أن محاولة مقارنة أنفسهم بهؤلاء الذين هم عبارة عن مظاهر الله في الأرض شيء مقيت يجر غضب الله وسخطه.. وبالتالي قام هؤلاء المسيطرون على دفة الحكم، والمالكون لخيرات البلاد بتوجيه حسد هؤلاء الفقراء والرعاع والمعدومين إلى كراهية المذاهب الأخرى وخلقوا لهم أحقاداً وعداوات وثارات..

ومن الملاحظ أن رموز الشيعة وكبراءهم لا ينزلون إلى مستوى العامة في السخط والشتم، وان ألسنتهم لا تنطق بأمثال هذا الكلام البذيء لأنهم راضون عن أنفسهم وأحوالهم وما يتملكوه من ثراء..

سأرهقه صعوداً

عندما ينهي الشاب تعليمه يلج معـترك الحيـاة، فيجنـد نشـاطه ومواهبه لإحراز النجاح المادي والحصول على أكبر قسط مسـتطاع من المال. وإذ هو في غمـرة هـذا الشـعور، يعتـبر كـل شيء- عـدا ذلك- ضرباً من اللهو والعبث لا يوليه اهتماماً ولا التفاتاً.

وبهذا تتأصل فيه شهوة المال ويصبح عبداً لها، فإذا تزوج أصـبح في واد وزوجته في واد آخر، لا يكاد يشعر بها أو تشعر به، لأنه يعود إلى بيته وقد نال منه الإعياء، بعد أن قضي نهـاره كلـه وشـطراً مـن ليله خارج البيت مندمجاً ومنهمكـاً في أعمالـه، فيدفعـه الإعيـاء إلى التماس النوم طلبا لشىء من الراحة، فلا يولي بيته وزوجته وأطفاله ولو قسطاً يسيراً من الرعاية والعطف والحنان..

وقد يستيقظ مبكراً فلا يرى زوجته وأطفاله ويخرج حثيثاً سـعياً وراء هدفه. حتى في أيام عطلته يخرج من البيت ليمارس نوعـاً مـن التسلية التي يراها ضرورية لتجديـد نشـاطه الـذي يحتـاج إليـه في معركته لكسب المال وجمعه.

ومما لا شك فيه أن النتيجة الحتمية لذلك أن يفتر حبه لزوجته ويفتر حب زوجته له، وقد يتطور الأمر فينقلب الحب إلى عداء وبغضاء، ويستشعر في قرارة نفسه بأسى خفي لا يدري كنهه أو مصدره- لأنه لاهٍ بما هو مستغرق فيه، فيدفعه ذلك إلى مضاعفة الاستغراق في عمله. وهنا، تصل العلاقة بينه وبين زوجته إلى الحد الذي يتعذر فيه الإبقاء على رابطة الزوجية؛ لأنه تجاهل الصلات الطبيعية لهذه الرابطة المقدسة، فينتهي الأمر في أغلب الأحيان إلى الانفصال أو الطلاق، وعندئذ يتصدع البيت وتكون الضحية الكبرى هي الأولاد الأبرياء[٣٦].

إننا حين نعمل أو نأكل أو نتحرك.. إننا نفعل هذا كله بحثاً عن شيء نتوهمه.. شيء لا نجده في الطعام فنبحث عنه في الصداقة، ولا نجده في الصداقة فنبحث عنه في القراءة، أو السفر..، ولا نجده في القراءة والسفر فنبحث عنه في أحلام اليقظة والمنام.. شيء ندرك أنه موجود لكننا لا نعرف كنهه ومحتواه.. هكذا نبحث ونكد في البحث أملاً في العثور على ذلك الشيء الموهوم. وأحياناً نعثر على

[٣٦] مارجيري ويلسون: طريقك إلى الشباب الدائم: ص ١٦٨ (بتصرف) دار الهلال، القاهرة.

قضية نؤمن بها، أو على عمل يروق لنا، أو على مسكن كنا نحلم به.. ونعتقد أن هذا الشىء الذي طال بحثنا عنه، ثم بعد فترة نكتشف أننا كنا نخدع أنفسنا ونبالغ في الخداع!..

إن الإنسان يسعى إلى السعادة من خلال الأشياء الخارجية؛ فهو يجرب كل شيء يتوهم فيه السعادة كي يبدد قلقه وحيرته، لكن دون جدوى، فمثلا يطمع أن يجد السعادة بعد كل أمل يحققه بعد طول انتظار.. ولكن ما أن يحصل على هذا الشيء البعيد حتى يجد أن السعادة ليست فيه وأنها كانت سراباً، وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ؟ كلا}** (المدثر ١٥)؛ أي يطمع أن يصل إلى شيء أكثر من الأموال وهي السعادة والرضا.. وسوف يبقى الإنسان يرهق نفسه، ويفتق ذهنه، ويفني عمره، في الترقي وعلو الدرجات، ويحتال في الترقي من منصب إلى منصب، ومن مكانة إلى مكانة، وهو يكابد التعب والإرهاق وطول الفكر، دون أن ينال طلبته أو يحصل على مبتغاه من السعادة؛ وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً}** المدثر ١٧، يعني سوف يرهق الإنسان جسمه، ويكد عقله، ويوهن قوته، في

الصعود والترقي من درجة إلى درجة، ومن مكانة إلى مكانة. بل إن هذا السعي إلى الصعود والترقي بطول الفكر والتأمل والاحتيـال، سيكون السبب في قتل الإنسان نفسه بالمرض والهم والقلق.. وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{إِنَّهُ فَكَّـرَ وَقَـدَّرَ؛ فَقُتِـلَ كَيْـفَ قَدَّرَ}** المدثر١٩.

الحب وقلق عدم الاستيعاب

قلق عدم الاستيعاب أكثر ما يشيع في مجتمع الفاسقين من الرجال والنساء. فإذا صادف الرجل امرأة بارعة الجمال، تتأبى على الرجال، ازداد بها وجداً وغراماً، فلا يزال معها في هم وكرب، يتقرب إليها بشتى الوسائل والحيل،. فما أن ينال مراده حتى تعافها نفسه، ويمجها قلبه.

أحياناً تحدث تلك الملهاة بشكل معكوس، فتكون المرأة هي المبادرة، أو كما قال الغزالي: "فإن المرأة الجميلة قد تتظاهر للشاب الشبق الغني، حتى إذا تعلق بها قلبه، استعصت عليه واحتجبت عنه. فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم"[٣٧].

وإذا تأملنا تلك الدوافع النفسية، التي تقف وراء تلك الأفعال البشريئ، وجدنا الرغبة من الرجل أو المرأة إن هي إلا عملية استيعاب للآخر داخل الأنا (الذات). أو هو عملية احتواء

---

[٣٧] إحياء علوم الدين، جـ٤/ ١١٨

للموضوع داخل الذات. فالشخص عندما يفشل في هذا الاحتـواء ينتابه قلق شديد، يزداد كلما تأبت الأنثى عليه واحتجبت عنه.

وقد شاع قديماً لون من ألوان الحب سمي الحب العذري، وهـو مأخوذ من كلمة "عذراء"، وهي الفتاة البكر التي لم تقربها الرجال. هذا الحب من أقدم العواطف الإنسانية وجوداً، لكنـه مـن أنـدرها انتشاراً.

في هذا الحب تُعْتَبر الحبيبة شيئاً سامياً لا يمكن الوصول إليـه أو الاقتراب منه، ولا يصح أن تصل إليهـا يـد العاشـق الولهـان، فـلا يطمع في وصال، إنما يقنع بما يبذله من جهود مضنية لاستمالة قلـب الحبيبة، كنظم القصائد والأشعار، أو القتال والنضـال، أو التفـوق على المنافسين والأقران. وممن اشتهروا في ذلك مجنون ليلى، وعنـترة عبلة، وجميل بثينة، وكُثَيِّر عزَّة.

وأكاد أجزم أن تعذر منال المحبوبة أو "عدم استيعابها والـتمكن منها" هو العلة النفسية التي تـدفع المحـب المدلـه إلى الاعتقـاد في

سموها وإحاطتها بهالة من التقديس والتوقير.. ولـو وَجَـد منفـذاً إليها، أو كانت في مقدروه لانتفت عذرية الحب.

وقد شاع هذا اللون من الحب في العصر الجاهلي لـدى العـرب، وفي العصر الوسيط في أوربا، وكان موجهاً إلى نساء مرموقات مـن الطبقة العليا، ذات المكانة الاجتماعية اللاتي لا يستطيع العاشـق أن يتصـل بهـن اتصـالاً مشـروعاً أو غـير مشـروع لفـارق المركـز الاجتماعي.. لذلك وُجِد الشعور الجميل بالحب، على هـذا الـنمط من الحب.

ودار الزمن دورته، وتعاقبـت العصـور، وبـزغ فجـر النهضـة، وبدأت الحضارة القديمة تفقد سـلطانها وسـطوتها، فانسـلخ عـن الحب صفة العذرية، بينما بقيت صورته الشـاعرية، لكنهـا شـاعرية صريحة تستهدف الفوز بالمحبوبة والتمتع بوصالها.

وحين سَهُل منال المرأة انتهت الحاجة إلى الأسلوب الشاعري في الغزل، وتفتق ذهن الرجال عن وسـائل أخـرى لاقتنـاص قلـوب النساء، وتوزعت المرأة بين العشاق فلم تبق لعاشـق واحـد؛ فكـان

لذلك أكبر الأثار السيئة في الشعر والفن والموسيقى.. وتحول الشعر الجميل إلى نثر تشعر فيه بالضياع والحسرة والألم تسرى في كلماته وبين سطوره، وتحولت الموسيقى الهادئة إلى جلبة صاخبة..

ولكي تعود هذه الفنون إلى الازدهار يجب أن تكون المرأة عسيرة المنال، متلفعة بثوب الخفر والحياء.. وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}** (الأحزاب٥٣) وقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}** (الأحزاب٥٩).

أعود فأقول إن الحب هو عملية تصغير للآخر كي نحتويه داخل الأنا، فإن استطاع العاشق أن يحتوي معشوقه وأن يحيط به فهذا معناه راحة العاشق وسكون اضطراب نفسه، لأنه وجد نفسه أكبر من معشوقه. أما إن بقي المعشوق أكبر من أن يحاط به، فهنا تكمن المأساة وتتقد الرغبة.. وهذا ما حدث مع النسوة اللاتي راودن يوسف عن نفسه؛ فعندما رأينه أكبر من أن يحتوى أو يحاط به، كما

قال تعالى {**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَـكٌ كَـرِيمٌ**} أي بـدا في أعينهن كبـيراً شـامخاً، وأحسسن بالصغار ، لأنهـن وجدنـه لا يمكـن احتـواءه وامتلاكـه والاستحواذ عليه..

وهذا ما حدث مع امرأة العزيز فلما فشلت في تصغيره بـالمراودة والمخادعة أرادت تصغيره بالسطوة والمحاكمة {**وَلَـئِن لَّمْ يَفْعَـلْ مَـا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ**} يوسف٣٢. وهكـذا فـإن لم تصغره بالشهوة سعت إلى تصغيره بالقوة والسطوة.

والملاحظ أن سورة يوسف من أبرز السور التي تعبر عن القلـق الناتج من عدم السيطرة والاحتواء والاستحواذ.. لذلك تكرر لفظ المراودة عدة مرات حتى في المواضـع التـي لا يسـتخدم فيهـا هـذا اللفظ عادة؛ كقول أخوة يوسف: (سنراود عنه أباه) ذلـك أن هـذه السورة تريد بيان دوافع الشخصـيات جميعـاً وهـو حـب السـيطرة والاحتواء والامتلاك والاستحواذ، فعلى سبيل المثال أخوة يوسف يريدون الاستئثار بحب أبيهم، وامرأة العزيز تريد الاستئثار بحـب يوسف، والنسوة كذلك يردن نفس الأمر، والملك يريـد الاسـتئثار

بيوسف، وأخوة يوسف يريدون الاستئثار بالبضاعة، ويوسف عليه السلام يريد الاستئثار بأخيه.. هكذا نجد شخصيات السورة تسعى للاستئثار والاستحواذ..

امرأة العزيز وقلق عدم الاستيعاب

لنأخذ، على سبيل المثال، قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز. إن هذه المرأة كانت شخصية نهمة تسعى لاستيعاب كل شيء واحتوائه، وهي شخصية تروم السيطرة بشكل عنيف. لذا، نجدها تريد أن تحتوي كل شيء أمامها. ففي البداية مارست هذه السيطرة على زوجها فاستوعبته لدرجة جعلتها تستهين به، فلا يصوب إليها نظراً، أو يوجه إليها لوماً، ثم هو يلقي في وجهها، على استحياء، كلمة باهتة، مراوغة: **{إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}** [يوسف : ٢٨]

إن هذا الصنف من النساء شديد السعي للسيطرة والاحتواء، فهي لا تريد أن ترى من يقف أمامها، أو يحول دون عنفوانها، حتى لو كان عزيز مصر. فما أن اقترنت به واقترن بها حتى طوته تحت جناحها.

وبعد (عزيز) مصر أصدق الناس فراسة، كما قيل، من ذا الذي يملأ عين تلك المرأة؟ أوْ من ذا الذي تسمح له أن يلج قلبها؟ وهي

من هي بشهرتها بالعفة والدهاء. لذا، نجد أحد الأقوال من إحدى النساء: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف : ٣٠] أي إننا نراها ضلت عن طريقها الذي عهدناها تسير عليه، طريق الحكمة والعفة والكبرياء.

إذن، لا يمكن أن يلج قلب هذه المرأة إلا فتى كيوسف؛ باهر الحسن، عفيف القلب، طاهر النفس، حكيم العقل.. وهيهات أن يلتفت إليها من كان هذا شأنه من الاستقامة والصلاح، أو كان على تلك الحال من النزاهة والعفاف!

لقد أدركت امرأة العزيز بغريزتها الأنثوية، أن هذا الفتى طراز وحده، لا يمكن أن يوضع في مصاف من رأتهم من الرجال. لذلك، فقد سعت لاحتوائه واستيعابه، فراودته عن نفسه فأبى. فحاولت ترويضه تمهيداً لاستيعابه واحتوائه. وبهذا تكون المراودة عبارة عن عملية ترويض؛ لأنها شد وتجاذب بين إرادتين مختلفين، يريد أحدهما غير ما يريد الآخر. وفي المراودة معنى المخادعة والمخاتلة؛ فقد بدأت معه بالإشارة والتلميح، ثم بالمجاهرة والتصريح، ففشلت. أو كما قال صاحب المنار، رحمه الله، إنها لما

خابت في التعـريض لـه بالمغازلـة والمهازلـة تنزلـت معـه إلى حـال المكاشفة والمصارحة[38].

[38] محمد رشيد بن علي رضا: تفسير المنار ١٢/ ٢٢٨

ولقد همت به وهمّ بها

إذا كان الأمر كما تقدم من ترفع يوسف عليه السلام وتعاليه عن هذه الفعلة الشنعاء، فكيف نفسر قوله تعالى: **{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا}** [يوسف : ٢٤]

ينير لنا المعنى العميقَ لهذه الآية قولُه تعالى: **{لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ}** [الأحزاب : ٨]. هذه الآية تشير إلى أن هناك بعض الناس الذين جُبِلوا على الصدق ووهبوا صفة الإخلاص والاصطفاء.. هذه الصفات تصدر عنهم بتلقائية من غير تكلف لكثير من العناء والجهد، أي هي منهم كالرائحة الزكية من المسك، والضوء من الشمس، والدخان من النار.

فالصادقون المجبولون على الصدق، في أصل فطرتهم، لو منعوا هذه الصفات التلقائية، لكانوا عند ذلك ظالمين لأنفسهم قبل أن يكونوا ظالمين لغيرهم، أو كما قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

فهؤلاء قادرون على الكمال وسمو الأخلاق بتكلف قليل من المشقة والجهد. لذا، هم مسئولون سؤالاً يختلف عن أسئلة غيرهم ممن لا يستطيعون ولا يقدرون، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى : {**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ**}[الأحزاب:٨] وقوله: {**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**}[الأحزاب:٢٤] وقوله: {**وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ** }[المعارج:٣٣].

إذن، ما صدر عن امرأة العزيز هو أثر من آثار تربيتها منذ صغرها في البذخ والترف والنعيم. ومن خلال احتكاكها بالدسائس والمؤامرات التي يحيكها الكبراء والأمراء والوزراء الذين يغشون القصر ليل نهار.. وربما نشأت هذه المرأة في صغرها بين الجواري والغلمان الذي يحكم حياتهم دستوراً غير مكتوب هو: "اغتنم الفرصة فقد لا تعود!" فماذا سيصدر عن نفس كتلك النفس؟

أما يوسف عليه السلام فقد أطلعنا الله عز وجل على خبيئة نفسه حتى رأيناها رأي العين فقال: { **آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**} [يوسف : ٢٢] وقال: {**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**} [يوسف : ٢٤]، وبعد هذا البيان

لا تسـل عــن أوصــاف نفــس شــهد اللهُ لهــا بــالعلم والحكمــة والإخلاص..

فماذا سيصدر عن هذه النفس؟ لاشك أنه سيصدق عـلى هـاتين النفسين قول القائل: (كل إناء ينضح بما فيه). فيكـون معنـى قولـه تعالى: **[ولقد همت به وهم بهـا]** أي همـت بـما يـتلاءم مـع نفسـها وطبيعتها. وهم هو بما يتلاءم مع نفسـه وطبيعتـه. وشـتان مـا بـين النفسين وما بين الطبيعتين!

وغلقت الأبواب

بالإضافة إلى المعنى المتبادر من في قوله تعالى (وغلقت الأبواب) فهناك معنى آخر للأبواب غير المعنى المفهوم، وهو أبواب الظنون الحسنة، وهو أن امرأة العزيز عندما أرادت يوسف لنفسها لم تصارحه بذلك، وإنما بدأت معه خطوة خطوة، وأظهرت الكثير من الحيل للفت نظره ولكنه يعرض عنها ولا يلتفت إليها، وهذا ليس معناه بأن يوسف عليه السلام لم يكن خلواً من الشهوة، أو لم تكن دماء الشباب تتدفق في عروقه، إنما هو نبي، وظنون الأنبياء تختلف عن ظنون البشر الذين دوما ما يلتمسون للأعمال البريئة دوافع غير بريئة، إنما الأنبياء دوما يلتمسون للأفعال غير البريئة دوافع بريئة، كما قال عمر رضي الله عنه: **(ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك منه ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً)**[٣٩].

---

[٣٩] جلال الدين السيوطي: جامع الأحاديث (مسند عمر بن الخطاب) ٢٩/ ١٦

فكـان يوسـف عليـه السـلام عنـدما يـرى مـن امـرأة العزيـز التلميحات والإشارات، يبحـث لهـا بـين كـل هاتيـك الإشـارات الآثمة على باب للنية الحسنة، ويلتمس لها حسن النية في ذلك كلـه، ولا يذهب عقله أبعد من هذا، إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة التي لم يبق بعدها مكان للتبرير وحسن النية؛ حيث غَلَّقـت كـل أبـواب الظنون الحسنة عندما: **﴿غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾** فهكـذا لما غلقت أبواب القصر، أغلقت في نفس اللحظة كل أبواب حسـن الظن، فلم يبق بعدها لحسن الظن باب.

القلق والغرام

قلنا فيما سبق: إن الإنسان يميل إلى من يلائمه أو ما يكمل به نقصه ويجبر خلله.. وكلما زاد نقص الإنسان زاد وجده وهيامه، وهاج عشقه وغرامه، هذا من جانب. ومن جانب آخر، نجد الرغبة في السيطرة والاستيلاء، عملية ملتبسة تشبه إلى حد كبير عملية الحب . وفي حقيقتها ليست كذلك، إنما هي حب للسيطرة والاستيلاء ليس إلا. بل، إن الرغبة في السيطرة والاستيلاء يمتزج فيهما "الحسد" بشكل كبير. فما أن يرى بعض الأشخاص من يتفوقون عليهم في جانب من الجوانب ، حتى يأكل الحقد قلوبهم.. عند ذلك يسعون إلى السيطرة على الشيء الذي حرك الحقد في قلوبهم، وأشعرهم بالضآلة في نفوسهم. فإن تم لهم ذلك شعروا، مؤقتاً، براحة تغمر نفوسهم بعد عملية السيطرة التامة، ثم بعد ذلك يفقد هذا الشيء بريقه وتوهجه!..

وهناك من الأشخاص من يكونون أقل نزعة في التطرف من أولئك الذين ذكرناهم، فهم لا يمارسون السيطرة بشكل واقعي،

إنما يمارسونها في الخيال. وبالتالي، يخلقون في كل شيء يعجبهم- ولا يستطيعون الوصول إليه- عيوباً من صنع أخيلتهم، ومن تصوير نفوسهم، ثم يلصقونها في الأشياء التي لا يستطيعون السيطرة عليها. وبهذا، تعافها نفوسهم، وتصرف عنها وجوههم ولو إلى حين!.

والملاحظ أن المتدينين لا يقعون، غالباً، في الغرام. ونقصد بالتدين: التدين العميق الذي يبلغ درجة التصوف. هؤلاء المتدينون لا يقعون في الغرام غالباً، لأنهم يميلون إلى الله عز وجل. فهم بهذا الميل لا يقعون في الغرام غالباً، لأنهم يميلون إلى الله عز وجل؛ فتصفو نفوسهم، وتشرق أرواحهم وتستنير بصائرهم.. وهم في طمأنينة نفسية وسعادة روحية لا يحتاجون معها إلى إكمال نقصهم ، أو سد خللهم.

ويبدو أن (عاطفة الغرام) و(عاطفة التدين) تنبعان من مشكاة واحدة، أو تتغذيان من جذر واحد.. وما يحرف إحداهما عن مسارها الطبيعي، بعد ذلك، هي الأمور العارضة.. فالنفس إذا أشرقت، والروح إذا أضاءت فاستنارت، فإن هذه العاطفة تصبح

(تدين). أما إذا أظلمت النفس، وانتكست الروح.. فإن هذه العاطفة تنحرف عن مسارها الأصلي إلى حب البدائل والأنداد، فيكون استبدال للأصل بالفرع، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}** [البقرة : ١٦٥].

فالأنداد هم البدائل التي توجه إليهم تلك العاطفة، فتهيج نار الغرام في القلب كما يقول ابن القيم، رحمه الله: "من أعرض عن محبة الله وذكره، ابتلاه الله بمحبة غيره، فيعذب بها في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.. ففي الدنيا إما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصلبان، أو بمحبة النسوان، أو بمحبة المردان، أو بمحبة العشراء والخلان، أو بمحبة ما هو دون ذلك بما هو في غاية الحقارة والهوان، فالإنسان عند محبوبه كائنا ما كان، فمن لم يكن ألهه مالكه ومولاه كان ألهه هواه"[٤٠].

---

[٤٠] ابن القيم: الداء والدواء ص ٢٣٢

وعلى هذا، يمكننا اعتبار الغرام (تـدين معكـوس)!.. أو تـدين ضلّ الطريق، وتنكب الصراط المستقيم. والملاحظ أيضاً، أن الذين يكونون مؤهلين للوقوع في الغرام، هم الأشخاص الذين يكونـون أشد حـرارة في العاطفـة الدينيـة، إذا فسـدت أحـوالهم، وسـاءت أفعالهم.

قلق عدم الاستيعاب وسليمان عليه السلام

إننا لو تتبعنا حياة نبي الله سليمان عليه السلام سنجد خيطاً رفيعاً ينتظم هذه الشخصية من البدء حتى الختام.. هذا الخيط هو حب السيطرة والامتلاك!

خذ، مثلاً، دعاءه القرآني: **{وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي}** [ص : ٣٥]، أي هب لي ملكاً لا يملك أحد من خلقك السيطرة عليه، أو التحكم فيه!..

خذ مثلاً سيطرته على جنوده من الجن والإنس والطير، ورغبته الجلية في وضعهم في قبضة يده كما توضع الكرة الصغيرة في اليد، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}**[النمل : ١٧]، فكلمة (حُشر) فيها معنى التصغير للشىء المنفوش حتى يسهل القبض عليه والإحاطة بجوانبه. فهم، وإن حُشروا شكلاً، فقد حُشروا مضموناً!..

ثم تسوق السورة الأمثلة على سيطرته التامة على الجن والإنس والطير؛ فتبدأ السورة بالطير: **{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ: مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ؟}** [النمل : ٢٠].

ثم تثني السورة بالإنس: **{أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}** [النمل : ٣١].

ثم تختم بالجن: **{أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}** [النمل:٤٠]

وبفهمنا لهذا الخيط الدقيق الذي افترضناه وهو حب السيطرة والامتلاك لكل شيء يقف أمامه، أو يمر في خياله – بفهمنا لهذا الخيط، نرجح بأن الذي عنده علم من الكتاب في قوله تعالى: **{قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}**[النمل:٤٠] هو سليمان عليه السلام وليس وزيره "آصف بن برخيا" كما تقول التفاسير.

وقد ترجح لدينا هذا القول لأن سليمان عليه السلام لا يصبر أن يرى أحداً يتعالى عليه ، أو يظهر الخوارق بين يديه، لاسيما وأن

سليمان عليه السلام لا يفتخر بتلك الخوارق، ولا ينسبها لنفسه، إنما يتخذها سبيلاً كي يحبب إلى أتباعه الإيمان والتوحيد . فعندما ظهرت قوته الخارقة في استحضار عرش "بلقيس" في طرفة عين قال معقباً: [**هذا من فضل ربي**]. وعندما ظهرت قدرته الخارقة في سماع قول النملة قال معقباً: {**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**} [النمل : ١٩].

فالخوارق والعجائب التي تجري على يد سليمان عليه السلام، كان يتخذها وسيلة لبيان قدرة الله عز وجل في الكون، وأن هذه القدرة من الله وحده فلا يشعر بالتعالي أو الغرور. على عكس ما كان يبدو من عفريت الجن الذي قال: {**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**} [النمل : ٣٩]

فانظر إلى استخدام ضمير المخاطب "أنا"، وانظر إلى قوله (**قبل أن تقوم من مقامك**) تجده مجرداً من الألقاب، وأدب الخطاب. وانظر إلى قوله [**وإني عليه لقوي أمين**] تجده يمتلئ بالتوكيدات..

أما طلب سليمان عليه السلام: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ؟} [النمل : ٣٨] فليس طلب معونة واستجداء، كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، إنما أسلوب تنبيه كي يختبر كل واحد من الحاضرين مقدرته وإمكاناته، ويلتزم حدوده ومقدراته.. فإذا قام سليمان بإحضار العرش، أدرك كل الحاضرين، عند ذلك، أن هذا شيء عجيب وأمر غريب لم يكن يستطيعه لو أراده، ولا يتيسر له ولو عالج أسبابه؛ فلا يقول قائل بعد ذلك: لو طُلب مني هذا لفعلته، ولو أمرني بإحضاره لأحضرته!..

هذا الطلب من سليمان أشبه بسؤال يلقيه الأستاذ على تلاميذه، لا ليعرف الإجابة منهم، إنما ليحتال بهذا الأسلوب للفت انتباههم وتحفيز عقولهم.. فإن أجابهم بعد ذلك كانوا أسرع فهماً وأشد انتباهاً..

إن شخصية سليمان عليه السلام كانت واضحة في السيطرة على كل مخلوقات الكون. وحب السيطرة والامتلاك، لدى سليمان عليه السلام، ليست طبعاً متكلفاً يحمل عليها نفسه حملاً.. إنما هو طبيعة

متأصلة تمتزج في نفسه امتزاج اللحم بالدم. لذلك كان يشعر بالقلق المشوب بالحدة والغضب لو خرج شيء من تحت سيطرته، أو حاول أحد التمرد على مملكته، وكان دائم التلويح باستخدام القوة والسلطان عندما تلوح أولى إمارات التمرد والعصيان. وهذا يتضح في مخاطبته الطير، مثلاً، على لسان الهدهد فقال: **{لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}** [النمل : ٢١]، ومخاطبته الإنس في شخص أهل سبأ: **{فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}** [النمل : ٣٧]، ومخاطبته الجن والشياطين بقوله: **{وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ}** [سبأ : ١٢]

إذن، من خلال ما تقدم من مبادرة سليمان السريعة لإحضار العرش بسرعة أكبر من السرعة التي عرضها عليه عفريت الجن.. يتضح لنا أن سليمان عليه السلام كان يقطع على كل واحد الأسباب التي تجعله يشعر بالتعالي والافتخار.. وتجلى ذلك بوضوح في موقفه مع الهدهد الذي جاء مسرعاً يحمل خبراً كان يظن أنه سيجعل له مكانة يتيه بها زهواً بين رفاقه، ويُعطى من

الصلاحيات ما لا يعطى لسواه، فإذا به يجابه بهذه اللطمة القوية:

{قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ؟} [النمل : ٢٧]

فهذه عبارة تشي للهدهد من، طرف خفي، بأنك لا زلت في مكانك مظنة للشك والارتياب، وللمساءلة والحساب. فهذا النبأ، الذي ظن الهدهد أنه فرصة العمر جاءته، لم يغير شيئاً في منزلة الهدهد أو مكانته. بل، لم يغير حتى من طريقة سليمان الذي اعتاد أن يخاطبه بها.

وقطع تلك الأسباب التي يتخذها الأشخاص سبيلاً للتعالي والافتخار، كان واضحاً في الممازحة الجادة مع بلقيس عندما أمر سليمان عليه السلام، أن يُشَوَّه عرشها الذي تفتخر به، ثم بناء صرح ممرد من قوارير، يكون أعجوبة في الصنعة والرفعة والاقتدار، لدرجة أن ملكة سبأ **{حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا، قَالَ: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَا!}** [النمل : ٤٤][

فلما استل منها الأسباب التي تؤدي بها إلى الافتخار، ونزعها منها بحكمة ودهاء، إذ بها تقر بالاستسلام قائلة: **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [النمل : ٤٤].

لكن ما الأسباب التي كانت تحمل سليمان، عليه السلام، على تحقير الخوارق لدى الآخرين، وإشعارهم بأنها لا قيمة لها؟.

إن هذه الأسباب شيئاً قد عرفه في نفسه، وخبره من تجربته. فالخوارق والعادات غالباً ما تزيد غرور الرجل الذي تظهر على يديه، وتضعه في مكانة أعلى من مكانة الآخرين، وهذا ما كان يتوارد على خاطر سليمان، عليه السلام، ولو لثوان معدودات عندما كانت تجري إحدى هذه الخوارق على يديه، فكان من أجل ذلك كثير التوبة والاستغفار، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}** [ص : ٣٠].

فها هو نبي من أنبياء الله تتوارد على خاطره هذه الخواطر فيعلم كيف يطردها ويعالجها بما أمده الله به من وحي وإشراق.. فكيف

يفعل غيره ممن هو لا يصل لمرتبة نبي، ولا يمدد بوحي ولا إشراق!

غني عن القول إن هذه الخوارق ستفتح على الأشخاص العاديين أبواباً يصعب إغلاقها، ومنافذ يستحيل سدها..

من أجل هذا، ما أن يلمح هذه البوادر والإمارات من شخص من الأشخاص حتى يسارع إلى استئصالها من شأفتها، واقتلاعها من منبتها.. وهذا ما فعله مع ملكة سبأ!

كانت ملكة سبأ تفتخر على الناس بأشياء ثلاث: جنود أشداء، وعرش عظيم، وذكاء شديد!

أما جنودها فقال سليمان في شأنهم: **[فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها]**. وبهذا يكون قد نزع منها ثلث قوتها. أما عرشها فقال فيه: **[نكروا لها عرشها]** أي شوهوا صورته واطمسوا معالمه. هذا من جانب. ومن جانب ثان، قال: ابنوا بدلاً منه صرحاً ممرداً من قوارير، يكون أعجوبة في الصنعة والرفعة والاقتدار.. حتى يبدو عرشها بجانب هذا الصرح مهيناً ولا يكاد يبين: [فلما رأته حسبته

لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير]. وبهذه الضربة الثانية يكون قد أحرز النصر وسدد الضربة الحاسمة لغرور هذه الملكة وكبريائها؛ وبالتالي فقد أُسقط في يدها، وألقت إليه السلم قائلة: **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [النمل : ٤٤]

أما ذكاؤها فلم ينجح سليمان عليه السلام في النيل منه بشيء، وقد صدت الضربة التي وجهها إلى ذكائها. وليس هذا فحسب، بل إنها سددت ضربة بضربة، حُسبت لها لا عليها!

أما صدها هذه الضربة فكان من خلال نجاحها في الاختبار الذي وضعها سليمان عليه السلام، حين نكّر لها عرشها لينظر أتهتدي إليه أم تكون من الذين لا يهتدون، بعدما أدخل عليه تغيير كبير، فقالت: [كأنه هو].

أما توجيهها الضربة التي تكشف عن ذكائها وكياستها فيتضح من خلال قولها: **[وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]**، فهي لم تقل أسلمت لسليمان، إنما (أسلمت مع سليمان)، وفي هذا إعلام

مـن طـرف خفـي أنهـا لم تسـلم لـه، وإنـما أسـلمت لله، وأن هـذا الاستسلام ليس عن ضعف أو خور، إنما عن قوة واقتناع، هذا مـن جانب.

ومن جانب آخر، فإن هذه الآية، التي وردت على لسانها، تشـي من طرف خفي بحب السيطرة، وعدم الصبر على رؤية أحد يتفوق عليها. فإن كان سليمان يتفوق عليها في الإيـمان بـالله رب العـالمين. فها هي تسبقه من طريق آخر ليست هي طريق سليمان، وإنما تختـار لها طريقاً لا يشاركها فيها غيرها، فتقول: **[وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين]**.

بلقيس وسليمان عليه السلام

إنك لو طلبت مقياساً على خُلق المرأة، وقوة عقلها، ورجاحة فكرها.. فلن تجد مقياساً لذلك أصدق من العبارات التي تجري على لسانها في بعض المواقف الحرجة، فتصبح بعد ذلك حكمة ومثلاً يتمثلها المتمثلون في مواقف الحياة المتباينة.

إنك لتنظر إلى المرأة أحياناً، فتظن أن ملامحها وشت لك بخبيئة نفسها فعرفتها كعرفانك نفسك. فإذا تكلمت أبان صوتها ما تُخْفيه ملامحها، عند ذلك تجد نفسك أمام امرأة غريبة كل الغرابة عما وشت إليك ملامحها عنها قبل قليل!.. فمثلاً قد تبدو الحنكة والتجربة على ملامح المرأة، فإذا تكلمت أحسست أنها لم تعش في دنيا الأحياء يوماً. وأحياناً قد تبدو على ملامحها الطيبة والحنان، فإذا تكلمت أدركت أنها امرأة مجربة عركت رجال الدنيا ونسائها على حد سواء!.

أما هذه الملكة فيخيل إلي أنك لو تفرست ملامحها لوجدتها كأنها عبارة مبهمة في سفر مقدس، أو كالشيء الغامض الذي يروع

بغموضه أضعاف ما يعجب بروعته، وكلما استمعت إلى كلامها فاض عليك من الكلمات معان وإشارات.

ننظر مثلاً إلى عبارتها الأخيرة في فصل حياتها الأخير: **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [النمل : ٤٤]

فلو لم ينقل القرآن الكريم غير تلك الآية عن هذه المرأة، لكانت هذه الآية فيها الكفاية والمزيد للكشف عن شخصية هذه الملكة وحدة ذكائها ونضج شخصيتها.

فهذه الآية مفعمة بالدلالات، مليئة بالإشارات، وهي الآية الأخيرة التي خُتمت بها قصة تلك الملكة مع قومها. وهي في نفس الوقت القرار الأخير، بل القرار الخطير، التي كانت تنتظره الجموع المحتشدة، لتقرر مصيرها على ضوئه. لأنها كانت قد أرجأت قرارها بالسلم أو الحرب حتى تختبر سليمان وتعلم نواياه، وتميط اللثام عن مقاصده وخباياه ..

لذا، وجدناها جاءت إليه بنفسها، ودخلت معه في تجربة مثيرة، كان يعقد فيها بأسلوب وتحل هي بأسلوب آخر!.. أدخلها بادئ

الأمر في اختبار ذكاء، ثم في جولة استعراض، ثـم أخـيراً في صرح ممرد من قوارير. وبعد ذلك، انتهت عند قومها المنتظرين كلمة تفوه بها تقرر بها مصيرهم؛ فإذ بها تلخص مستقبلهم في هذه الآيـة التـي جاءت على لسانها: **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**.

وهنا، لابد من سؤال عن السبب الذي جعلهـا تقـول (**رَبِّ**) في قولها: (**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**) مع أن هذه الآيـة خطـاب لقومهـا. وفي نفس الوقت جاء قولها (**لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) في نهاية الآية أيضـاً ؟ فقد كان من المنطقي أن تقول هذه الآيـة بـلا إضـافة اسـم الجلالـة (ربي) في أولها لأنه ذُكر في نهايتها؟!

إن هذا يكشف عن قوة هذه الملكة وحنكتها، وأنها كانت طـرازاً فريداً من النساء.. فلو قالت لقومها، مثلاً، (إنى ظلمت نفسى) بلا إضافة اسم الجلالة، لكـان ذلـك اعترافـاً منهـا أمـامهم بالخضـوع والانكسار.. وبالتالي، فإن هذا الاعتراف يشـعرها بأنهـا أصـبحت تحت رحمة قومها، مذنبة، تستجديهم الصفح والغفران. فتصـغر في عين قومها، وتكون قد نبشت قبرها بأظافرها. ولكنها جاءت بهذه

العبارة لتجعل لها خط رجعة؛ فهي لا تعترف للناس، إنـما تعـترف لله. وبالتالي، فهي توجه إلـيهم خطابهـا ولا توجهـه لهـم، في نفـس اللحظة!..

ثم إن قولها : [**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ**] فيه إيحاء لقومها بأنهـا لم تسلم لسليمان، وإنما أسلمت لله، وهي تنفي في نفس الوقت هاجساً قد يهجس في نفوسهم بأن إسلامها كان من بـاب اعتنـاق العاشـق لمذهب عاشقه، تقرباً لنفسه وزلفى إلى قلبه.. فهي أسلمت معه، ولم تسلم له، وكأن سليمان عليه السلام، يسير في طريـق يسـبقها بضـع خطوات. ثم هي لم تفعل أكثر من أن همت السير، وحثـت الخُطـى فلحقت به، وأصبحت تقف هي وهو على قدم المساواة، أو كفرسي رهان..

فهي بهذا القول توحي إليهم أنها لم تنزل إلى سليمان، إنما ارتفعت إليه، ولم تقع تحت إرادته، إنما ارتفعت إلى قوته.

وعلى هذا، نجد قولها (**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**) كان تمهيداً في هذا الجو المشحون بالقلق والترقب والانتظار.. لتهيئ عقول قومها بأن

هناك تغيراً في موقفها يوشك على الحدوث، وبهذا تخفف من الجو المشحون المكهرب، وتهيئ لكلامها المرتقب العقول والنفوس.

أقول: إن قدرة المرأة على صياغة عبارات تجري في دنيا الناس حكماً وأمثالاً- إن هذه القدرة لهي أكبر الدلائل أن تلك المرأة، وإن كانت أنثى، فهي في حد ذاتها تاريخ.

وقد قص علينا القرآن الكريم خبر ثلاث نساء كان لهن في التاريخ شأن غير يسير ، وكلهن قد جرى على ألسنتهن عبارات قد أصبحت بعد ذلك حكماً وأمثالاً . خذ على سبيل المثال ملكة سبأ التي قالت في موقف من مواقفها هذه الآية التي لازال يستشهد بها المستشهدون في مواقف الحياة المتباينة: **{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}[النمل:٣٤]**.

وخذ، مثلاً، قول زوجة موسى وابنة شعيب عليهما السلام: **{إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}**[القصص:٢٦].

وخذ أيضاً، قول زوجة العزيز: **{إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ} [يوسف : ٥٣]**. وقولها: **{الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}** [يوسف : ٥١].

إن العبارة التي تتحدث بها امرأة من النساء فتصبح بعد ذلك مثلاً للمتمثلين، وقدوة للمقتدين.. هي أكبر دليل أن قائلها مثل في ذاته، وقدوة في أخلاقه سواء أكانت كريمة أو مرذولة!

فالعبارة التي تتحدث بها المرأة تكشف عن كوامن نفسها، وقوة عقلها، وتكون دليلاً على قوة المرأة وارتفاع مكانتها في قومها ومن يحيطون بها، وأنها لديهم شخص يُقتدى، ومَثَل يُحتذى بقصد وبلا قصد!..

خذ، مثلاً امرأة العزيز التي جرى على لسانها في لحظات انفعالها عبارات لازال يستشهد بها المستشهدون. إن هذه المرأة لابد أن تكون في شخصها قدوة يهتدي بها الآخرون في صمت أو علن، كما كانت عبارتها من قبل محط اقتداء واهتداء.. على سبيل المثال أعجبت هذه المرأة بيوسف عليه السلام وشغفت بحبه، فحذا

حذوها نساء العلية من قومها. فهي إن راودته عن نفسه وأرادته خدناً لها، فنساء قومها راودنه عن نفسه تأسياً بفعلها، واقتداء بسلوكها. عند ذلك قال عليه السلام: **{رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ}** يوسف٣٣

أمثال تلك الشخصيات يطلق عليها "الشخصية الكاريزمية". والكاريزما هي سحر الشخصية، تجدها ساحرة في تعاملك معها، بحيث تجذب أكبر قدر من الناس حولها ولا يعرف الناس لماذا ينجذبون إليها، فكل ما تقوله بديع، وكل ما تفعله شريعة، وكل ما تسأله مستجاب، إن عبرت عن هوى أصبح في الغد موضة، وإن حضرت كان حضورها شمساً، وإن التفتت كان التفاتها هدية، وإن ابتسمت كانت ابتسامتها إنعاماً، وإن أطلت كان إطلالها عيداً. فعندما تصادف واحدة من هذه الشخصيات فلن تنساها بمجرد الاختفاء عن النظر، أو بمجرد انتهاء اللقاء، إنما سوف يبقى أثر هذه الشخصية مطبوعاً في الذاكرة.

حتى الكاريزما تظهر في الجمادات: كالأبنية والمدن والموسيقى..، فبعض الأبنية، والأماكن، والبلاد، تجذبنا دون غيرها، ولا ننساها بمجرد غيابها عنا أو غيابنا عنها.. حتى لقطع الموسيقى هذه الكاريزما؛ فبعض المقطوعات الموسيقية تعلق بأذهاننا وندندن بها سنوات طويلة؛ بينما يتلاشى أثر مقطوعات أخرى بمجرد انتهاء النغمات الأخيرة.

الفصل الرابع

قلق المخالفة والاختلاف

(التزايل)

قلق المخالفة والاختلاف

نقصد بقلق المخالفة والاختلاف: مخالفة الخارج للداخل، أو مخالفة المتغير الخارجي للثابت الداخلي..

والاختلاف يختلف في الدرجة ولا يختلف في النوع، أي يتراوح بين الشدة والضعف. وأمثلة هذا النوع من القلق كثيرة جداً، فمنه، على سبيل المثال: الكفر، والنفاق، والخروج على العادة، أو التقاليد، إلى أن ينتهي إلى قلق اضطراب قافية الشعر ووزنه...الخ.

فالكفر، مثلاً، يسبب قلقاً في نفوس المؤمنين، لأنه خالف ما فطرت عليه قلوبهم من الطهر والنقاء "لأن القلب متى تذوق حقيقة الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لابد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب. وفي واقع الحياة، وفي دنيا الناس... يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة. ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله. لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه. من هنا، فإن الانطلاق إلى الجهاد في

سبيل الله بالمال والنفس، هو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن، يريد أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه، ليراها ماثلة في واقع الحياة ودنيا الناس. والخصومة بين المؤمن وبين الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته العيش حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني، وواقعه العملي. وعدم استطاعته، كذلك، التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف. فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله، حتى تنثني هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني الجميل، والحياة الإيمانية"[41].

وكما أن الكفر يسبب قلقاً في نفوس المؤمنين، فإن الإيمان يسبب قلقاً في نفوس غير المؤمنين كذلك، لأنه يخالف ما جُبلت عليه نفوسهم من الجحود والإنكار. لذا، كانت مقولة قوم لوط: **{أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** [النمل : ٥٦]

فهذه المقولة من قوم لوط محاولة للتخلص من عذاب الضمير، وقلق النفس الذي يسببه هذا الاختلاف بين حالهم وحال آل لوط،

[41] سيد قطب: في ظلال القرآن، ، جـ٦/ ٣٣٥٠

الذين كانوا ينأون عن الـرجس والـدنس.. حتـى وإن لم ينـه لـوطٌ واتباعُه قومَهم باللسان؛ فسـلوكهم الطـاهر يعـد احتقـاراً صـامتاً لسلوك الآخرين.

إذن، الاخـتلاف مـن الأسـباب التـي تجلـب القلـق النفسـى. والكفر- كما تقدم- يُحدث قلقاً في نفوس المؤمنين، لأنه خـالف مـا في نفوسهم من الطهارة والنقـاء.. ومـن هنـا، يمكننـا الولـوج إلى سيكولوجية الشهيد، لندرك أن هذا الاختلاف بين الأنـا والآخـر، أو بين (أنا) الشهيد الطاهرة، وبين أوضاع المجتمع الدنسـة.. هـذا الاختلاف يُصيب الشهيد بالتوتر والقلق، ولا مخـرج ، عندئـذ، إلا بإزالة هذا التناقض بين الأنـا والأخـر؛ فينـدفع الشـهيدُ لتخلـيص الحياة من الدنس، فينتهي به الأمر بتخليص نفسـه مـن دنـس هـذه الحياة!..

وكما تقدم، فإن القلق درجـات، يختلـف شـدة وضـعفاً. وربـما أضعفها القلق الناشئ من اختلاف قافية الشعر. فـنحن، مـثلاً، إذا قرأنا أو سمعنا قصيدة شعر موزونة ومقفاة، ثـم جـاء بيـتٌ بقافيـة مخالفة بعدما أَلِفَتْ أذاننا وزناً ما، فإننا، عندئذ، نشـعر بـالتوتر مـن

جرّاء هذا الاختلاف والشذوذ. لماذا؟ لأن الأبيات الموزونة، التي سبقت البيت الشاذ، أقامت في نفوسنا ميزاناً ثابتاً. ومن ثم، فالأبيات التي جاءت مخالفة لهذا البيت الموزون، بلبلت الميزان الثابت وشوشته، فأحدث في نفوسنا بعض التوتر والقلق!

ونعود إلى قلق المؤمنين من رؤية المظاهر غير الإيمانية: فأحياناً يقل أو حتى ينعدم القلق في نفوس بعض المؤمنين الذين يقتربون من غير المؤمنين. وهذا يرجع لغلبة الأمور المادية وسيطرتها على الاثنين معاً، أي على المؤمن وغير المؤمن، فتجدهم لا يتطرقون إلى أمور الآخرة. وهنا، لا يكون الاختلاف ظاهراً جلياً؛ لأن المؤمن الذي استولت على حواسه الماديات يكون أشبه بالذي يكون في غيبوبة، أو كأنه أغشي على قلبه وسمعه، حتى لا يكاد يشعر بنفسه، فيكون حاله كالتائه الذي يضل السبيل، وتتشابه عليه المسالك، فلا يدري أيها يسلك أم أيها لا يسلك، وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ. وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}** [الممتحنة:١]

إذن، نجد في بعض الأحيان لا يكون هناك قلق بين المؤمن وغير المؤمن، وهذا لا يحدث إلا في فئة قليلة ذات تركيب نفسى خاص، يكونون في أصل فطرتهم ذوي نزعة مادية، تزيد من نزعتها بيئةٌ مواتية ينشأون فيها منذ نعومة أظافرهم.

أما الخلاص من التوتر والقلق الناجمين عن الاختلاف، فيكون بالانسجام بين القلب والجوارح، أو بين الداخل والخارج، أو بين الذات والموضوع،.. الخ. وفي سبيل تحقيق هذا الانسجام، تكون النفس أمام خيارات ثلاثة:

الأول: القتال:

وذلك سعياً للتوحد، وإزالة التناقض والاختلاف بالقوة والسطوة.. وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ- مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ- وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}**[البقرة:٢٥٣].

هنا يسري على المجتمع قانون يسمى "قانون الاستقطاب"؛ لأن الأغلبية الساحقة من البشر لا تتسم في الأوقات العادية بالشر

الواضح أو الفضيلة الواضحة، ولا تبالي بأمر المجتمع كثيراً. لكن هذه الأغلبية- غير المبالية- تميل إلى الانقسام؛ إما إلى اليسار وإما إلى اليمين عند نشوء الثورات، فتضمحل الأغلبية المتوازنة لصالح أحد القطبين المتعارضين في كل من المجالات الأخلاقية والدينية والفكرية..

الثاني: الاعتزال:

ويحدث الاعتزال إذا كانت النفس شديدة الطهارة، لا تستطيع تغيير الواقع بالقوة. عند ذلك يتم اللجوء إلى الاعتزال للمحافظة على هذه الطهارة، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا}** [الكهف : ١٦]

الثالث: الانسجام:

ويحدث الانسجام عندما تقل الطهارة، وتخفت حدتها، وتنطفئ جذوتها.. حتى يمكن التعايش مع الواقع قليل الطهارة. وفي هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ**

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد : ٢٦، ٢٥]

إذن، للخلاص من القلق لا بد للإنسان أن يختار إحدى هذه الخيارات الثلاثة آنفة الذكر. وأخطر هذه الخيارات هو الخيار الثالث، وهو الذي حذر منه الله عز وجل نبيه محمد- صلى الله عليه وسلم- تحذيراً شديداً؛ فقال: **{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}**[هود:١٢]

فهذه الآية توضح أن هناك قلقاً ناجماً في الصدر أشارت إليه بقوله تعالى: [ضائق به صدرك] لكنها تحذرنا أن نسلك الطريق الثالث.. طريق الانسجام للخلاص من هذا القلق. والانسجام يتم، كما بينته الآية، من خلال ترك (بعض التشريع) الذي يصدم معتقدات القوم الراسخة، حتى يحدث التقارب بين شرعة الإسلام وشرعة الكفر. أو يحدث تقريب وجهات النظر بين جميع الأطراف، كما يعبرون عن ذلك بلغة السياسة المعاصرة!

قلق التزايل والمزايلة

التزايل: معناه الافتراق والتباين. وتَزَيَّلوا: تفرَّقوا، وزَيَّله، تزييلاً: فرقه تفريقاً، ومنه قوله تعالى:**{فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ}**، يقال: زِلْتُ الشَّيْءَ، فَأَنَا أَزِيلُهُ، إِذا فَرَّقْتَ ذَا مِن ذا. وزايله: فارقه. ويقال: خالطوا الناس وزايلوهم، أي فارقوهم في الأفعال.

يقول تعالى: **{لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}**[الفتح:٢٥].

لفهم معنى **(تَزَيَّلُوا)** يجب أن نفهم معنى العذاب الأليم. فالعذاب الأليم هو: العذاب النفسى في الدنيا المتمثل في الهم، والكرب، والغم، والقلق، وعدم الرضا، بسبب اختلاف ظاهر الإنسان عن باطنه.

هذا معنى العذاب الأليم في الدنيا. وهو المراد بمضاعفة العذاب في قوله تعالى: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}**[الأحزاب:٣٠].

فالآية تشير إلى أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، إذا ارتكبن فاحشة مبينة مثل: شراسة الخلق، أو سوء القول.. فسوف يضاعف لها العذاب ضعفين، فما المقصود بالضعفين هنا؟

الضعف الأول: العذاب الدنيوي المتمثل في التوتر، والتشتت، والغم، وعذاب الضمير، الذي يشعر به كل مَنْ قام بعمل يخالف طبيعته، وما جُبِل عليه من إيمان. **والضِّعْف الثاني:** عذاب يوم القيامة.

فعندما يفعل المؤمن ما يتنافى مع إيمانه وتقواه، تحدث المفارقة التي يتبعها الشعور بالقلق، والتوتر، وعدم الأمن والاستقرار.

وعلى هذا فالتزايل: افتراق الظاهر، ومخالفته للباطن.. فعندما يكون اعتقاد الإنسان وشعوره الداخلي والخارجي اعتقاداً واحداً منسجماً، لا يختلف ظاهره عن باطنه، ولا خارجه عن داخله، ولا قوله عن عمله.. تحدث السكينة، والراحة، والاطمئنان. أما إذا حدث افتراق الداخل عن الخارج، والفكر عن العمل، والظاهر عن الباطن، فعند ذلك يحدث العذاب النفسي.

فإذا أظهر المنافق الإيمان، فإنه سيشعر بالحرج، والقلق، والتوتر، وعدم والاستقرار.. لماذا؟

لأنه خالف الشيء الداخلي المطبوع في نفسه مسبقاً. لهذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يشعر بالحرج إذا فعل الشيء الذي يحسه في داخل نفسه، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ}** [الأحزاب : ٣٨]

ولن يصل المؤمن إلى حقيقة الإيمان حتى يزول حرجُه وقلقُه من نفسه تماماُ عند امتثاله لأي أمر من أوامر الشريعة، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}**[النساء:٦٥].

باختصار أقول: لكي يكون الإنسان في حالة اطمئنان تام، أو هدوء ووئام يجب أن يكون خارجه وداخله شيئاً واحداً، لا يختلفان ولا يفترقان؛ لأن صفات الإنسان الداخلية والخارجية يجب أن تكونا صفة واحدة، لأن داخل الإنسان عالم مستقل، كما أن خارجه عالم مستقل أيضاً، ولا يحدث الهدوء والسكينة والاستقرار إلا

بانسجام هذين العـالمين، (الـداخلي والخـارجي) فيصـبحان عالمـاً واحداً متحداً متوحداً.. إنه شيء شبيه بالزوجين، الرجل والمـرأة.. فالأصل بين الزوج وزوجته هو التوحد. فعندما تتوحد الزوجة مع زوجها، والزوج مع زوجته؛ فيصبحان كأنهما جسد واحد، عنـدها يشعران بالسكينة والهدوء كما قال تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُـمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}**[الروم:٢١].

أما إذا تزوج الرجل بامرأة لا تحبه؛ أو تزوجت المـرأة برجـل لا يحبها، فلن يشعرا بالاستقرار، وستبقى بينهما المنغصات والمكدرات حتى يحدث الانفصال أو الافـتراق، أو يظـلا في هـم قـائم وعنـاء دائم. وإلى هذا المعنى جاءت الإشـارة إلى طـلاق زينـب مـن زيـد بقوله تعالى: **{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِـكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}**[الأحزاب:٣٧].

وتقل درجة القلق كلما قلت المفارقة بين الفكر والسلوك، أو بين الداخل والخارج، فيتحد الظاهر والباطن، ويتسق القول والفعـل، حتى لكأنه بناء واحد متماسك.

لذا، جاء التحذير بعدم نقض الأيمان بعد توكيدها، والعهود بعد توثيقها؛ لأنه متى حدث التوثيق والتوكيد، ثم جاء الواقع يُجبر الإنسان على نقض توثيقه وتوكيده، فلا بد أن يحدث القلق، الذي يتبعه العذاب النفسي المتمثل في الهم والضجر والكرب.. وهذا هو معنى قوله تعالى: **{لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [الفتح:٢٥]

فأثابكم غماً بغم

نقف هنا أمام نموذج من الاختلاف بين الداخل والخارج، هـذا النموذج يصوره قوله تعالى: {**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ، لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ. وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**} [آل عمران : ١٥٣]

هنا، نجد اختلافاً بين القلب والجوارح، أو بين الروح والجسم.. فكانت النتيجة التي لا تتخلف أبداً وهي القلق!

ويظهر لنا هذا الأمر جلياً بالرجوع إلى سبب نزول الآيـة، وهـو يوم أحد الرهيب، عندما فرّ بعض المؤمنين في هذا اليـوم العصـيب من ضربات السيوف، تـاركين وراءهـم الرسـول، صـلى الله عليـه وسلم، يواجه قدره بمفرده، خوفاً من الموت وطلباً للحياة!..

ومما لا شـك فيـه أن المـؤمنين كـانوا قـد وطنـوا أنفسـهم عـلى الاستبسال في ساحة القتال، والسعي للشهادة تحت أي ظـرف مـن الظروف، دون أن يخالج قلوبهم أدنى شك في هذا الاعتقـاد. وقـد أظهروا هذا العزم والتصـميم مـن خـلال أقـوالهم، وأعـادوا هـذا

القول بمناسبة وبغير مناسبة. لذا، فقد تمثلته قلوبهم، وتخيلته أذهانهم كحقيقة واقعة، لا مرية فيها ولا ارتياب!

عند وصول الاعتقاد إلى هذا الحد غير المحدود، فإن داخل الإنسان وخارجه يصبح شيئاً واحداً متماسكاً لا فرق فيه بين الداخل والخارج، أو بين الظاهر والباطن.. لذا، لو مرت على الإنسان تجربة، وهو على تلك الحالة النفسية، فإنه سيكون أمام احتمالين لا ثالث لهما؛ أولاهما: أن يثبت أمام هذه التجربة، فلا يحدث انفصام بينه وبين اعتقاده، ويبقى الداخل والخارج جداراً متماسكاً.. فإن حدث هذا، خرج من هذه التجربة ظافراً، وقد ازداد ثباتاً على مبدئه واعتقاده. هذا بالإضافة إلى الراحة النفسية التي يحسها الإنسان عند هذا النجاح؛ وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا}**[النساء:٦٦]

أما إذا لم يثبت الإنسان أمام هذه التجربة (وهذا هو الاحتمال الثاني) وتمكنت تلك التجربة من إحداث شرخاً وصدعاً بين الإنسان واعتقاده، فسار كل من الواقع والاعتقاد في طريقين

متدابرين- عند ذلك يشعر الإنسان بنفس شعور البنّاء الذي يشيد بيته، حجراً حجراً، ثم هو ينقضه، رغماً عنه، حجراً حجراً. أو يشبه شعور المرأة التي تنسج، بعناء وضنى، ثوبها خيطاً خيطاً، ثم هي، رغماً عن إرادتها، تنقضه خيطاً خيطاً، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا}**[النحل : ٩٢]

فالتجربة[١] إن كانت قاسية، بحيث استطاعت أن تحدث فصاماً بين الداخل والخارج، وأن تحدث في هذا الجدار النفسى المتماسك، شرخاً لا يلتئم، وجرحاً لا يندمل.. فإن هذا الفصام يترك في النفس من الهموم والأحزان ما ينوء بحملها الإنسان، ويعرض الإنسان لمشاعر قاسية، وصراعات رهيبة!.. وهذا هو السر في نهي النبي، صلى الله عليه وسلم، عن تمني لقاء العدو حيث قال لصحابته:

[١] لابد من التنويه هنا أن المقصود بالتجربة ليس القتال فقط، وإنما هي كل أمر عاهد الإنسان عليه نفسه أن يفعله أو ينتهي عن فعله. ثم تجئ التجربة بعد ذلك تصدق ذلك أو تكذبه!

(أيها النَّاسُ لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العَدُوِّ، واسألوا الله العافِيَةَ فإذا لَقِيتمُوهُمْ فاصْبِرُوا)[٤٢]

وقد أدرك النبي، صلى الله عليه وسلم، هذه الحتمية النفسية من آيات القرآن الكريم، وقد تمثلت تلك الحتمية في حادثة مروية:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ: ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! قَالَ: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟ قَالُوا: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا. فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[البقرة : ٢٤٦].

***

أعود إلى قوله تعالى في شأن معركة أحد: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ، لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ. وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران : ١٥٣]

[٤٢] رواه مسلم والبيهقي وغيرهما

أقول: لقد صدقت نبوءة النبي، صلى الله عليه وسلم، عندما جاء يوم أحد الرهيب، وفرّ المؤمنون من حول النبي، صلى الله عليه وسلم، خوفاً من الموت أو القتل، وهو يدعوهم في أخراهم ليعودوا إليه ولكن دون جدوى!.. وعند ذلك، حدثت تلك المفارقة القاسية على النفس، فكان أثرها على النفس، يشبه إلى حد كبير، ما يحدث لوعاء مغلق من الصفيح المحمى في النار إذا وُضع في ماء بارد. وهكذا، عندما جاء الواقع ليشهد بهذا الاختلاف، وجاء السلوك يناقض الشعور، والخارج يختلف عن الداخل.. حدث القلق ولابد له أن يحدث، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة **[فأثابكم غماً بغم]**.

إذن، ننتهي من هذه الآية فنوجز هذه الفكرة كالآتي: تذكر لنا الآية مؤمنين لاشك في إيمانهم وإخلاصهم، لكنهم صدرت عنهم أفعال وأقوال لا تصدر إلا عن منافقين لاشك في نفاقهم. فحدث هنا القلق!.

ثم تجئ الآية التالية فتعرض علينا صورة معاكسة للصورة السابقة، فنجد أنفسنا أمام منافقين لاشك في نفاقهم، صدرت

عنهم أفعال لا تصدر إلا عن مؤمنين لاشك في إيمانهم! وهذا اختلاف يسبب القلق، كما تقدم، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ، ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟! قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ! يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ}** [آل عمران : ١٥٤]

فهذه الآية تصور لنا طائفة من المنافقين قد استلوا سيوفهم، وامتطوا جيادهم، مشبهين أنفسهم - ظاهراً - بالمجاهدين المخلصين الذين يؤمنون بالله ورسوله.. بينما في حقيقة أنفسهم تمتلئ قلوبهم بظنون الجاهلية وشكوكها، مما جعلهم في صراع مقيت بينهم وبين أنفسهم، مما دفعهم للتساؤل الحائر، الذي ينم عن الحيرة والضياع: **[هل لنا من الأمر من شيء؟!]**

فهم بهذه المبالغة الشديدة في التوحد مع المجاهدين الصادقين، يسعون - بوعي أو بدون وعي - لإخفاء حقيقة في النفس لا يريدون أن يطلع عليها أحد، وهي النفاق المتستر، والشرك المقنع.. فكانت النتيجة أن أهمتهم أنفسهم وأحزنتهم، وركبهم من الغم ما ركبهم.

إذن، يمكننا أن نقرر حقيقة تقول: إن الإنسان تقل لديه درجة القلق كلما كان منسجم الداخل والخارج، متوحد الظاهر والباطن، متسق القول والفعل.

وأيضاً فإن الانسجام أو الاقتناع يبدأ ينبثق أولاً من القلب مثل نقطة صغيرة، ثم يبدأ بالانتشار والاتساع؛ كاتساع بقعة زيت وقعت على رقعة قماش.. ويزداد هذا الاتساع، حتى يصبح الفكر والسلوك، والداخل والخارج شيئاً واحداً منسجماً، وبناءً واحداً متماسكاً. ثم إن القلق والنفاق يحدثان نتيجة تخلخل هذا البناء المتماسك، والنقب في هذا الجدار المترابط!.. لذا، جاء التحذير الشديد للمؤمنين بألا ينقضوا الأيمان بعد توكيدها، وألا ينقضوا العهود بعد توثيقها، كما تدل على ذلك كثير من آيات القرآن الكريم؛ لأنه متى حدث التوثيق للعهد، والتوكيد للميثاق.. ثم، بعد هذا التوكيد والتوثيق جاء الواقع الذي يضطر الإنسان إلى نقض هذا الميثاق والإخلال بهذا العهد.. إذا حدث ذلك، نكون أمام أمرين لا ثالث لهما: القلق بفروعه من هم وحزن وكرب. والثاني: النفاق.

الفصل الخامس

قلق النفاق

قلق النفاق

الحديث عن الانسجام بين الذات والموضوع، أو بين الداخل والخارج.. يجرنا للحديث عن النفاق؛ لأن النفاق يُحدث قلقاً في نفوس المنافقين، لمخالفة ظواهرهم بواطنهم. والمنافقون دائمو العيش في قلق، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا القلق الذي يعتمل في صدورهم في أكثر من آية:

{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون : ٤] وقوله: **{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ}** [التوبة : ٦٤]

ونقف عند الآية الأولى بالشرح والتحليل، يقول تعالى:

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ،

وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ،

كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ،

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون : ٤]

قوله تعالى: [وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم..] فيه إشارة إلى عدم الانسجام بين الداخل والخارج، فأنت إن أعجبتك أجسامهم، فسوف لا تعجبك نفوسهم. فقد بالغوا في تجميل ظواهرهم وتزيينها.. فحدث، عند ذلك، الاختلاف بين جمال الصورة وقبح السريرة!.. إذن، هنا اختلاف. والاختلاف يُحدث قلقاً كما تقدم.

وبالمثل نجد نفس الأمر في الفقرة الثانية من الآية: [**وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**] وفيها إشارة إلى التناقض، وعدم الانسجام بين الداخل والخارج، أي بين الفكر والقول، وبين النظر والعمل. فهنا نجد القول غاية في الجلال والجمال، يوازيه، في نفس اللحظة، فكرٌ غاية في الخبث والدهاء. فهذا القول الجميل صدر عن فكر خبيث، وهذا أمر غير مستقيم. بل، متناقض وغير منسجم، فلا بد أن يحدث القلق.

وبالمثل الفقرة الثالثة من الآية: [**كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ**]. المقصود بالخشب المسندة أن الإنسان أحياناً ينظر من بعيد إلى عمود خشبي ينتصب أمامه في شموخ وكبرياء، فيقع في ظنه أن هذا العمود

قوي، يمكنه الاعتماد عليه، وإسناد إليه ما شاء من الأحمال والأثقال!

وعندما نقترب من هذا العمود الشامخ، تكون المفاجأة بأن نتبين أن العمود لا يسند نفسه بنفسه، وإنما هو مسند بأشياء لم تظهر لنا من الوهلة الأولى، ولو تخلت عنه هذه الأشياء التي تسنده، لهوى على الأرض بشكل محزن يثير الشفقة والرثاء!

إذن، هذه الآية بفقراتها الثلاث السابقة، أظهرت لنا- في صور مختلفة- الاختلاف وعدم الانسجام بين نفسية المنافقين وبين سلوكهم. فأين إذن القلق الحادث من جرّاء هذا التناقض وعدم الانسجام؟!

يجئ الجواب في الفقرة الرابعة: [**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**] أي هم مترقبون، قلقون، خائفون من كل صوت يسمعونه، ومن كل همس يلتقطونه، ومن كل تغير يشاهدونه.. وكأن الكون، بأرضه وسمائه، أصبح متحالفاً ضدهم، يترصد حركتهم ويتربص غفلتهم، ليصيب منهم مقتلاً، أو يأخذهم على حين غِرة، لأن

الغشاش دائم التوجس أن تعود إليه بضاعته المغشوشة!.. وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ}** (الشورى٢٢).

وكم يبلغ قلق هؤلاء في عالم يعيشون فيه، وهم يشعرون أنه يترصدهم، ويُحصي عليهم حركتهم.

إذن، قد تبين لنا من خلال عرضنا السابق لفقرات الآية: **{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ. وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ. كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ. يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}** [المنافقون : ٤]

تبين لنا أن النفس، منذ البداية، قد انطوت على النفاق. وبالتالي، ظهرت على الجوارح توابعه وأثاره.. وهو- كما تقدم- الاختلاف بين الأصل والصورة، أو بين المخبر والمظهر ...

والآن سوف نقف على صورة معاكسة لهذه الصورة، وهي صورة النفس التي لا تنطوي على النفاق منذ البداية، وإنما الذي يبدأ في الظهور التوابع والآثار فيصبح الأصل فرعاً، والفرع

أصلاً.. أو بمعنى آخر، كان النفـاق أولاً، ثـم تبعـه ظلـه الـذي لا ينفك عنه وهو الاختلاف ثانياً.

أما فيما يلي سنجد أنفسنا أمـام صـورة معاكسـة لهـذه الصـورة، حيث يحدث الاختلاف أولاً، ثـم يتبعـه ظلـه وهـو النفـاق ثانيـاً، فيكون ظهور أحدهما يقتضي ظهور الآخر بالضرورة، وهذا يتضح في قوله تعالى: **{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْـلِهِ لَنَصَّـدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ}** (التوبة ٧٥-٧٧).

هذه الآية تصور لنا أعمق طبقات النفس البشرية، حيث انبثقت من طبقات النفس السفلى نقطة صغيرة. ثـم بـدأت تزيـد وتنتشـر حتى استولت على الكيان النفسي برمته؛ ليصبح هـذا الكيـان كـلاً واحداً متناغماً، وبناءً واحداً متماسكاً.

ومن المعلوم أن هذا التماسك في هذا الجدار النفسي لا يحدث بين عشية وضحاها، إنما يتم ببطء شديد على فترة ممتدة من الزمن؛ تشبه

تماما قطعة القماش التي تنسج خيطاً خيطاً، حتى تتم وتكتمل، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **[ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً]**(النحل٩٢).

وبعد أن مضي الوقت الكافي لصلابة هذا البناء النفسى ومتانته، جاءت التجربة التي إما ستزيد صلابة هذا الجدار ورسوخه، وإما ستُظْهِر شروخه وصدوعه. وكانت التجربة، بأن آتاهم الله من فضله، وأغدق عليهم من نعمه، عند ذلك، (بخلوا به وتولوا وهم معرضون) فتداعى هذا الجدار النفسى، وانهار، وحدث فيه من الشروخ والشقوق ما حدث؛ عند ذلك سار كلّ من اعتقاد الأمس وواقع اليوم في طريقين متدابرين: [**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ**].

إذن، فالنفاق هو النتيجة المترتبة على هذا الاختلاف بين الداخل والخارج، والظاهر والباطن.. ولا يتم الخلاص من هذا النفاق إلا بتوحيد الخارج مع الداخل، أو العكس. وهذا ما جاءت إليه الإشارة في قوله تعالى: {**لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ؛ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**} [التوبة : ١١٠]

فهذه الآية تصور لنا الأمر بدقة متناهية كالتالي: المنافقون كانوا قد بنوْا مسجداً !.. والمساجد هي بيوت الله في أرضه، أطهر بقاع الأرض، لا تناسبها إلا قلوباً نيرة، ونفوساً مشرقة تعبر عن هذه الطهارة والوضاءة. ولكن، هذه البيوت الطاهرة تم بناؤها من قلوب خبيثة مملوءة بالحقد والنفاق، مما جعل الأمر غير مستقيم، فحدث هنا التنافر والصراع كما يحدث التنافر والصراع بين قطبي المغناطيس السالب والموجب، ولا يتم حسم هذا الصراع إلا بإبدال أحد الطرفين، وتوحيده مع الآخر. لأن هذه القلوب الدنسة لا يناسبها إلا أماكن دنسة تتجسد فيها هذه القذارة النفسية. إلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: [**إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**] هنا، نجد الشك قد انبثق من القلب كانبثاق النقطة السوداء في البحيرة الراكدة، فكان لابد لهذا الشك في الداخل ما يوازيه في الخارج، فكان بناء مسجد الضرار. فلما تجسد الريب الخارجي في هذا البنيان، ارتد هذا البنيان، إلى القلب مرة أخرى، فزاده ريباً إلى ريب، وشكاً إلى شك، فأصبح هذا الريب قطعة واحدة متصلة من

الداخل إلى الخارج، ومن الخارج إلى الداخل، وبعد هـذا الإحكـام كيف يكون العلاج والتوبة؟

لابد من حل وتفكيك إحـدى الطـرفين، بعـد أن تماسـك هـذا التماسك الشديد فاصبح كالبنيان المرصوص.. فالطرف الأول هـو المسجد الذي لابد أن يهدم بأيدي من بنوه بعد اقتناعهم بخطـأ مـا ارتكبوه. والطرف الثاني هي القلوب الملآى بالريب والشـك، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **[لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم، إلا أن تقطع قلوبهم]**؛ أي تقطع القلوب الحاقدة، وتُستبدل بقلوب بريئة طاهرة، حتى يتم التناغم والانسجام بينها وبين بيوت الله. والمعروف أن المسجد لم يتم هدمه بأيديهم، وإنما هدمـه النبـي، صلى الله عليه وسلم، وصحابته، فبقـي البنـاء قـائماً، إن لم يكـن في الواقع المنظور، فهو في الخيال والشعور. وبقيت العلاقة متصلة بين المسجد والقلوب، فلابد من إزالة إحداهما حتى يـتم الشـفاء التـام من الريب والنفاق.

ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم

يقول تعالى: {**وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**} (النحل ٩٤)

هذه الآية مثالاً جيداً على تأثير الظاهر في الباطن، وتأثير الباطن في الظاهر.. هنا نجد الداخل والخارج شيئاً واحداً، ثم بدأ الاختلاف من الخارج حينما أقسموا بالله على شيء وهم يعلمون كذبه، لكن القسم كان منهم خديعة ومخاتلة، وهم يعلمون ذلك، فبهذا تفككت الصلة ين الداخل والخارج، وأصبح القلب ينطوي على الخديعة والغش، فزلت القدم وسرى النفاق إلى النفس!

جاء في التفاسير بأن معنى دَخَلا: الغوائل والخدائع. وكل امر لم يكن صحيحا فهو دَخَل[٤٣] ، ومعنى **(ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً**

[٤٣] **(تفسير الثعالبي).**

بينكم): يعني خديعة وفساداً بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا إلى أيمانكم ، ويأمنوا إليكم ثم تنقضونها"[44].

وتحليل ذلك: أن في بداية تدين كثير من الناس يكون تدينهم بصدق وحرارة. فيلتزمون باللباس الخارجي، ويعفون اللحى، ويرتلون القرآن ويجودونه. لا شك أن تلك أشياء تجلب لهم المكانة والوجاهة الاجتماعية. لكن مع طول الزمن تخبو حرارةُ الإيمان لدى بعضهم فتصدأ قلوبهم ويقل صبرهُم. لأن طلب الوجاهة هو القارض الخَطِر الذي يؤثر على الإيمان كما يؤثر الصدأ على الفولاذ، فينبري المتدينُ يطلب المالَ والوجاهةَ على حساب دينه. ويكون مثله كشخص نسج ثوباً بعد جهد وعناء، ثم أخذ ينقضه خيطاً خيطاً. أو يكون مثله كشخص بنى بيتاً عظيماً فلما اكتمل أخذ ينقضه حجراً حجراً.

هنا، يبدأ الانحطاط عندما يتخذ الإنسان هذه المظاهر الخارجية لتحقيق مكاسب مادية، أو وجاهة اجتماعية. وبهذا يكون غاشاً ومخادعًا؛ لان التزامه بهذه المظاهر الخارجية لم يصبح لوجه الله، إنما

[44] (تفسير الخازن).

طلبا للوجاهة الاجتماعية والمكاسب المادية، ناسياً أو متناسياً أن تلك وجاهة فارغة، وأن ما عند الله خير وأبقى مما يطلب من دنياه ومما يبيع ضميره من أجله. هذه المشاعر النفسية العميقة تسلط الأضواء عليها آيات متتابعة من سورة النحل من آية ٩١- ٩٦:

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}

وهذا الاختلاف الذي يظهـر في قلـوب المنـافقين بـين الـداخل والخارج، أو بين القلب والجوارح.. نجده أيضاً عند تحليلنا اللغوي لكلمة النفاق:

النفاق في اللغة

النفاق: "مأخوذ من كلمة (نفق)؛ والنون، والفاء، والقاف أصلان صحيحان يدل أحدهما على ذهاب الشيء وانقطاعه، فنقول نفقت السلعة إذا بيعت وخرجت من حيازة البائع"[٤٥].

وإذا نَفَق الشيء وذهب، لا يمكن امتلاكه، أو احتواءه أو السيطرة عليه.. كذلك المنافق لا يمكن تصنيفه مع المؤمنين، أي يخرج من هذا التصنيف، كما لا يمكن تصنيفه مع الكافرين. أي لا تنطبق عليه صفات المؤمنين الخُلَّص، ولا تنطبق عليه صفات الكافرين الخلص، فهو متردد بين القطبين، ومتذبذب بين الفريقين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!

ومنه أيضاً أُشتق (النفق)؛ سواء أكان المراد بالنفق بيت القنفذ، أو كان المراد بالنفق السرداب الذي يسير فيه الناس تحت الأرض. فعلى المعنى الأول؛ نجد أننا لو أردنا الإمساك بقنفذ لأسرع

[٤٥] ابن فارس: مقاييس اللغة: مادة نفق.

بالدخول إلى نفقه، وخرج من الجانب الآخر. وإن جئنا له من الجانب الآخر يُسرع بالخروج من جانب ثان، وهكذا..

وعلى المعنى الثاني نجد أن النفق- وهو السرداب الذي يسير فيه الناس- نجد فيه معنى الاختلاف، لأنه يختلف مدخله عن مخرجه، فقد يكون مدخله في بلد ومخرجه في بلد آخر. نجد هذا في الأنفاق التي تكون في قصور الملوك والحكام، استعداداً للكوارث والانقلابات، حيث يكون مدخل النفق في داخل القصر بينما يكون مخرجه في خارجه، وهكذا.. لذا، فإن عذاب المنافقين يوم القيامة يكون من جنس عملهم في الدنيا، فيه معنى السخرية والتهكم والاختلاف، حيث يُضرب بينهم بسور له وجهين: وجهٌ فيه الرحمة للمؤمن، ووجه فيه النكال والوبال للمنافق؛ وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ: بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}** [الحديد : ١٣]

أما المؤمن المنسجم داخلاً وخارجاً، وظاهراً وباطناً، وقولاً وعملاً.. فإن جزاءه يكون فيه مثل هذا التناغم والانسجام، وإلى

هذا المعنى جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}** [الحديد : ٢٨]

إذن، فالأصل في الإنسان السوي أن يكون منسجماً ظاهراً وباطناً، شعوراً وسلوكاً، فكراً وعملاً..، أما المنافق فهو يفتقر إلى هذا الانسجام. وهذه هي سمته البارزة؛ حيث يتمثل فيه الاختلاف وعدم الانسجام على أشده!..

الفصل السادس

الجدار النفسي

الجدار النفسي

نقف عند الجدار النفسي، لنرى هذا الجدار بوضوح أكثر. قلنا إن الإنسان السوي هو من يكون منسجم الظاهر والباطن، والقول والعمل، والفكر والسلوك.. فإذا كان ذلك كذلك، فإننا سنجد هناك خيطاً يصل بين الداخل والخارج، والفكر والسلوك. أما إذا اختلف الفكر عن السلوك، أو العكس، فإن هذا الخيط عند ذلك سينقطع ويسير كل من الفكر والسلوك في طريقين متعاكسين؛ وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ. أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}** [الرعد : ٢٥]

من المؤكد أن انبثاق الشعور عند إعطاء الإنسان الميثاق على نفسه، يكون في اللحظة التي يُعطِي فيها الميثاق، ويؤكد فيها العهد.. في تلك اللحظة بالذات، يصبح داخل الإنسان وخارجه جداراً متماسكاً، وطريقاً معبداً. وفي تلك اللحظة بالذات، لا

يتصور الإنسان بديلاً آخر، ولا يتخيل، بحال من الأحوال، نقضاً لهذا الميثاق الذي قطعه على نفسه..

هذا التأكيد والتوثيق هو الطرف الأول للعهد.

أما الطرف الثاني للعهد، فهو ما يكون خارج النفس من خلال تصديق الواقع لهذا الميثاق النفسي؛ فإن صدّق الواقعُ الميثاق المضروب، والعهد المقطوع.. عند ذلك، سيكون هناك اتصال بين الطرفين. أما إن جاء الواقع يكذب هذا الميثاق النفسي، فإن هذا الخيط سينقطع. وبالتالي، ستنقطع الصلة بين الداخل والخارج، والظاهر والباطن، والقول والعمل.. لذا، جاء التعبير بقوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}** [الرعد : ٢١]

فالله عز وجل أمر أن يوصل الداخل والخارج، والفكر والسلوك.. ويصبحا كقطعة واحدة، أو كطريق معبد لا اختلاف بين أوله وآخره، أو بين مبدأه ومنتهاه!..

ومن الصعوبة. بل من الإثم، أن يترقى الإنسان إلى درجة، ثم هو ينزل إلى درجة أسفل منها. فمتى تم إقامة هذا البنيان المرصوص، والطريق المرصوف، فلا يجوز نقضه، أو شرخه، أو فصمه. فإذا عمل المؤمن عملاً حسناً، واعتاد على هذا العمل، فإن هناك في نفس الوقت وبالتزامن طريقاً غير منظورة، تمتد بين الداخل والخارج، وتزداد متانة وصلابة، وإحكاماً ورصانة. عند ذلك، فإن نقض أي طرف من الأطراف- الخارج أو الداخل- سيكون له آثاره الخطيرة على النفس. لهذا، كنا نجد الرسول، صلى الله عليه وسلم، يحذر المؤمنين من الإتيان بالأعمال الكثيرة، ثم الملل منها وتركها بعد أن اعتادوا عليها.

ولم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، يجاري بعض صحابته في تشددهم في بعض الأعمال والعبادات للسبب نفسه؛ وكان يقول: "**أَحَبُّ الأَعْمالِ إلى الله أَدْوَمُها وإنْ قَلَّ**"[46].. وقد قال للرجل الذي سأل أيكون الحج في كل عام؟ قال له النبي، صلى الله عليه وسلم:"**لو قلت نعم لوجبت**"، أي لو قال نعم إن الحج يكون في

[46] الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم.

كل عام، لأطاع المسلمون هذا الأمر في كل عام. وبهذا يعتادون على هذه العبادة، ومتى اعتاد المسلمون على عبادة ما فإن التشريع ينزل بترسيخها وتأكيدها. لهذا، لم يُرِد النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يجعل المسلمين يعتادوا على الحج في كل عام، لأنهم سيملون ذلك، ويهبطون عن القمة التي وصلوا إليها، وهذا الهبوط، بحد ذاته، يؤثم النفس ويجرمها.

إذن هذا هو المقصود بالجدار النفسي.

أحياناً، يكون من الخير للإنسان أن لا يتماسك هذا الجدار النفسي من أول الأمر.. هذا في حالة العزم على فعل أمر من الأمور المستقبلية التي لا يملك الإنسان إنجازها. عند ذلك، من الخير أن يكون هذا الجدار النفسي مخلخلاً منذ البداية، وأن يدق في وسط هذا الجدار شيئاً يمنعه من التماسك، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ﴾** (الكهف ٢٣).

فهذا الأمر الإلهي بتقديم المشيئة جاء في مصلحة الإنسان كي يجنبه الإثم والحزن. فعندما يعزم الإنسان على فعل شيء مستقبلي، ويؤكد هذا الفعل وكأنه حقيقة واقعة لا شك فيها ولا ارتياب.. عند ذلك، يكون قد أنشأ صورة خارجية لهذا الشيء الذي أقسم عليه، فتخيل أنه أصبح ضمن حيازته وممتلكاته؛ وعند ذلك يرتد هذا الشيء المستقبلي إلى النفس، مرة أخرى، فيلتحم مع العزم، الذي حدث أولاً، فيصبح الشيئان- الخارجي والداخلي- قطعة متماسكة، وبنياناً مرصوصاً. وعندما يصل الإحساس إلى هذا الحد، فإن أي نقض في أحد الطرفين يسبب الحزن والهم لدى الإنسان، بعد أن ربطه وأحكم الرباط. لذا، كان الخروج من هذا المأزق وتجنب الحزن والقلق، هو عدم الربط أصلاً، وأن يجعل بين الشيئين (الداخلي والخارجي)، منذ البداية، فاصلاً يحول دون العقد والإحكام. هذا الفاصل هو مشيئة الله سبحانه وتعالى، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ﴾**.

هذا الفاصل يشبه، إلى حد ما، المادة المطاطية التي توضع بين جدران البيوت في بعض الدول المتقدمة، تحاشياً للزلازل.. فإذا تخلخل جدار البناء، من جرّاء الزلزال، تعمل هذه المادة المطاطية، على عدم شد الجدر الأخرى معها، حيث أنهم توصلوا إلى طريقة لتخفيف آثار الزلازل والهزات الأرضية على الأبنية، بأن لا تكون الجدران قطعة واحدة متلاحمة، إنما تكون عبارة عن قطع يفصل بينها مادة مطاطية تسمح لكل قطعة بشيء من الحركة والاهتزاز دون التأثير على الجدر الأخرى.

والارتداد إلى الداخل يكون في الأعمال عموماً. فانظر الأعمال القبيحة.. انظر كيف تعود آثارها على النفس، فتتعبد الطريق بين النفس والعمل وتتشابهان تمام الشبه، حتى يصبح الإحساس والشعور عند ذلك كصخرة صماء، أو كعقبة كأداء.

يمكننا أن نتخيل الأعمال السيئة بمثابة باب نفتحه ونغلقه خلفنا، وكلما ارتكب الإنسان سيئة فكأنه سار في ممر ينتهي إلى باب يفتحه ويغلقه خلفه، وهكذا حتى يصبح مسجوناً في مكان قصي

يحتاج فيه إلى أن يفتح الأبواب الكثيرة التي أغلقها باباً باباً، حتى يتحرر من عبوديته لتلك الشهوات..

عموماً نحن لا نفكر في الأمر بهذه الطريقة، لكن هذا ما يحدث بالضبط. لذا كي نتحرر سوف نمر في هذه الأبواب ولكن في الاتجاه المعاكس.

وطريق التوبة عند ذلك تكون بتفكيك هذه العقدة المحكمة، وتفتيت هذه الصخرة الصلبة. ثم قطع هذا الخيط المتصل، وإبعاد كل طرف عن الآخر.. لهذا كان القرآن الكريم دائم الدعوة للكفار أن يفتتوا هذه الصخرة، ويقطعوا هذا الخيط، ويقتحموا هذا السد.. لكنهم لم يفعلوا، وأبقوا العقدة كما هي لم يفكوها، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}**[البلد : ١١] وقوله تعالى: **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}**[البينة:١]

هذا في الدنيا. أما في الآخرة فإننا سنجد أن الأعمال التي لا تستمد غذاءها من القلوب هي أعمال زائفة غير متجذرة في القلب.

وبالتالي، لا يُركن إليها، لأنها ستزول وتتلاشى عند أدنى اختبار أو تمحيص.

فالمرائي، الذي أنفق ماله رئاء الناس، ثم هو لا يؤمن بالله واليوم الآخر.. هذا المرائي، ستتخلى عنه أعماله الحسنة عند أدنى تمحيص أو اختبار، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا}** [البقرة:٢٦٤]

ضُرب هذا المثل لتصوير دواخل المنافقين وخارجهم، تصويرها بالصخر والتراب. فالصخر والتراب مادتان غير متجانستين، وكذلك قلوب المنافقين وأعمالهم. ففي هذا المثل شبهت القلوب بالصخور (ليست من باب القسوة فقط!)، وشبهت الأعمال بالتراب (ليس من باب التحقير والتقذير فقط!).. إنما، لأن التصاق التراب بالصخر لا يدوم ولا يطول، لأنه التصاق عارض، يزول من أدنى هبة ريح، أو قطرة ماء.. وعند ذلك يصبح الصخر أجرداً، لا يستقر عليه شيء!.. كذلك أعمال المنافقين، التي كانوا

يأتونها نفاقاً ورياءً: فما أن يقفوا بين يدي ربهم حتى تتخلى عنهم أعمالهم التي كانوا متلبسين بها في حياتهم الدنيا، فتتركهم عراة على حقيقتهم، فإن هم أرادوا اللحاق بها فلن يدركوها، أو يصلوا إليها، ولن يقدروا على تحصيلها أبداً.. وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **[كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا]**.

فهم في فشل دائم من السيطرة على أي شيء. هذا من دواعي قلقلهم، كما فصلنا ذلك سابقاً.

ولنأخذ مثلاً آخر، دليلاً على ذلك: وهو قوله تعالى: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ. أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** البقرة ٢٠

فقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}

هذا المثل يشير إلى أن الظلام قد أحاط بمجموعة من الناس، فلجئوا إلى الوسيلة التقليدية لتبديد الظلام، وإنارة المكان، وهي إيقاد النار.. ولما أشعلوا النار، بدءوا يشعرون بالغبطة والسرور من سيطرتهم على الظلام الدامس، وبينما هم كذلك إذ هم فجأة، وبلا مقدمات، أمام ظلام داخلي أعظم وأشد، لا يستطيعون السيطرة عليه بحال من الأحوال.. هذا الظلام هو ظلام أبصارهم، حيث أعمى الله عيونهم، وطمس أبصارهم.. فأنى لهم أن يرجعوا البصر إلى عيونهم بعدما انتُزع منها؟! لذلك مكثوا في ظلام أبدي لا يزول بأي وسيلة من الوسائل. وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}.

أما قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة٢٠

هـذه الآيـة فيهـا مثـل للمنـافقين وضـعاف الإيـمان الـذين إن أصابتهم نعماء فرحوا بها وإن أصابتهم ضراء انقلبوا على وجـوههم خائبين.. فالمطر بما يصاحبه من ظلمة ورعد وبرق.. يشبه الإسـلام بما يصاحبه من محن وابتلاءات وانتصارات.. فالظلمـة والرعـد في المطر، تشبهان المحن والابـتلاءات في الإسـلام؛ لأنهـا غـير سـارة للإنسان. أما البرق في المطر فيشـبه الانتصـارات في الإسـلام لأنـه يضيء ويبدد الظلام.. هكذا تجد أن المنافقين ينتفعـون بانتصـارات الإسلام عندما ينالون منها المكسـب والمغـنم والجـاه، مـثلما ينتفـع الإنسان بوميض البرق عندما يـبرق فيضـىء المكـان، فـإذا ذهـب الضـوء وحـل الظـلام عـادوا إلى اليـأس والشـك والحـيرة والاضطراب..

والخلاصة: إنَّ هذا مثلٌ يُضرب للإسلام بأنـه مثـل مطـر غزيـر مبارك نازل من السماء **(فيه ظلـمات ورعـد وبـرق)**. هـذا المطـر لا يكون بلا ثمن وبلا تضحيات أو متاعب، إنـما فيـه ظلـمات ورعـد

وبرق. كذلك الإسلام فيه تضحيات وابتلاءات ومحن لابد أن يتعرض لها كل من يدين بالإسلام.

(يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) فالناس يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً على حياتهم من الصواعق والرعود عند نزول المطر، كذلك ضعاف الإيمان يخافون على حياتهم أن يصابوا بأذى بسبب إيمانهم بالإسلام؛ فيتهربون من التضحيات وبذل الأنفس خوفاً على حياتهم ومناصبهم. فقط يريدون الإسلام منافع ومناصب تُقَدم لهم على طبق من ذهب، لا يريدون أن يبذلوا في سبيله جهداً، أو يقدموا تضحية، أو يريقوا دماً.

(يكاد البرقُ يخطف أبصارهم) يعني تكاد دلائل صدق الإسلام، تعمي أبصارهم من شدة وضوحها ولمعانها.

(كلما أضاء لهم مشوا فيه) كلما أضاء البرق شيئا من الظلام ساروا خطوات على قدر وميض البرق. يعني كلما نالوا منفعة مادية أو منصباً أو جاهاً من الإسلام ساروا في ركابه **(وإذا أظلم عليهم**

قاموا) يعني إذا ضعف المسلمون وقلت المنافع المادية والمناصب من وراء الإسلام، أظهروا جلوداً غير جلودهم وقاموا يطعنون في الإسلام ويستهزؤون بالمسلمين.

(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم. إن الله على كل شيء قدير) يعني الله قادر على أن ينتقم من هؤلاء المنافقين ومن هؤلاء الكافرين.

وقوله تعالى: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ. فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [البقرة : ٢٦٥]

هذه الآية تشير إلى أن المؤمنين، أصحاب الأعمال النابعة من القلوب، ستبقى أعمالهم ثابتة في نفوسهم في الدنيا والآخرة. فالأعمال النابعة من القلوب لا سبيل إلى إزالتها أو تلاشيها؛ لأنها نابعة من القلوب، وهي شديدة الغور في أعماق النفوس، وحنايا الصدور.

ومثل الجنة التي في الربوة، هو مَثَلٌ للقلوب الخيرة بالفطرة.. ضُرب هذا المثل على النقيض من المثل السابق.. فالمثل السابق صور لنا أشخاصاً لا خير يُرتجى فيهم، ولا نفع يُنتظر منهم، في كل أحوالهم وظروفهم، سواء أنفقوا أم لم يكونوا منفقين؟!

أما في هذا المثل فنجد أنفسنا أمام صنف من الناس، في كل أحواله وظروفه، هو بركة وخير، سواء أنفقوا أم لم يكونوا منفقين؟!

إننا أمام جنة في مكان مرتفع.. هذا المكان بطبيعته الوجودية، تكمن فيه كل عناصر الخصب والنماء.. (فالطَّل)؛ يحيط به ويُظله في كل وقت وكل حين، صيفاً وشتاء.. ليلاً ونهاراً.. لذا، فإن هذه الجنة المرتفعة لا ينقطع خيرها وثمرها.. وهذا عند أضعف الإيمان، وأصعب الاحتمال.

أما إن أصاب هذه الجنة (وابل) من السماء فسقاها ورواها، فإن هذا المطر الهاطل سيزيدها خيراً إلى خير، وخصباً إلى خصب؛ فتؤتي، عند ذلك، أُكلها ضعفين.. الضعف الأول بحسب طبيعتها

المعتادة والمعهودة. والضعف الثاني الزائد عن المعتاد، جاء بحسب ما أصابها من مطر السماء.. وكذلك قلوب المؤمنين!

إن قلوب المؤمنين خيرة بطبيعتها، مشرقة بفطرتها، حتى ليكاد زيتها يُضيء ولو تمسسه نار. وهذا يكفي لتعطي أُكلاً لا ينقطع، وخيراً لا ينتهي!..

أما إن تيسر للمؤمن العمل الصالح من صدقة، ومعروف، وإصلاح، وإنفاق، وجهاد في سبيل الله.. إن تيسر له ذلك، فإنه سيزيده نوراً على نور، وخيراً على خير، وتعطي عند ذلك أُكلها ضعفين.

وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة بقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إِنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلوبِ الرِّجالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ)** [1] أي إن علمهم بالقرآن والسنة زادهم خيراً على خير، ونوراً على نور.

---

[1] الإمام الزبيدي: مختصر صحيح البخاري، حديث رقم٢٠٢٠

قد فرض لكم تحلة أيمانكم

هذا الشعور هو ما يجده الحالف عند حلف اليمين على أمر بأن يفعله أو لا يفعله. فماذا يحدث عندئذ؟

يصبح الخارج والداخل قطعة واحدة متماسكة، لأنه تم الربط والعقد بين الشيئين- الداخلي والخارج- كم يُعقد بين طرفي خيط أو حبل، فيتماسكا تماسكاً محكماً. وعندما يتم هذا التماسك يكون الثواب والعقاب من الله عز وجل، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: **{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}** [البقرة : ٢٢٥]

فالقسم يبدأ بشيء خارجي يقسم عليه الإنسان بأن يفعله أو لا يفعله، وبعد أن يقطع على نفسه عدم فعل هذا الشىء، نجد أن الشىء الخارجي يرتد إلى الداخل؛ فيصطبغ الخارج والداخل بنفس الصبغة، ويصبح الخارج والداخل شيئاً واحداً متماسكاً كالبنيان

المرصوص. فإذا لم يصبحا قطعة واحدة، أحس الإنسان بالإثم وتأنيب الضمير!

وللخروج من هذا الشعور يجب البدء بالشيء الخارجي المقسم عليه وحله وتفكيكه، بطريقة خاصة، فرضها الله تعالى، كما جاءت الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: (**{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}** (التحريم٢). وقوله: **{فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ، مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ، أَوْ كِسْوَتُهُمْ، أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ}** [المائدة : ٨٩]

فالكفارة هي الشيء الذي يفصل، بسلام وأمان، بين الداخل والخارج، وبين الفكر والسلوك، وبين القول والعمل..

وأيضاً نجد أن الاستغفار يفعل نفس فعل الكفارة، حيث يفصل بين الفكر والسلوك، والعمل والقول، والخارج والداخل.. وذلك قبل أن يتم عقدهما في بعضهما البعض، وإحكام العقد والربط (لأن هذا العقد هو الذي يكون عليه الثواب والعقاب). لكن الفرق بين الكفارة والاستغفار: أن الكفارة تكون من الذنب

الذي بدأ من القلب ثم انتقل إلى الجوارح (من الداخل للخـارج). أما الاستغفار فيكون من الذنب الذي بدأ من الجوارح ثم انتقل إلى القلب (من الخارج للداخل) فهما عمليتان عكسيتان!

لذلك نجد كفارة اليمين يجب أن تبدأ من حيث انتهت إليـه، أي من الجوارح إلى القلب، أو من الخارج إلى الداخل، أو من السـلوك إلى الشعور، لتتم الدورة، وتؤتي أكلها الطيـب في الـنفس، فكانـت كفارة اليمين هي الإطعـام، أو الإعتـاق، أو الصـيام.. وذلـك لأن عقد اليمين بدأ من الجوارح إلى القلب.

أما الاستغفار فيبدأ من القلب إلى الجوارح، وذلـك لأن الـذنب بدأ من الجوارح، ثم رجع أثره على القلب، فيبدأ مـن حيـث انتهـى أيضاً، فتكون كفارتـه (يعنـي الاسـتغفار) أن يبـدأ مـن القلـب إلى الجوارح، حتـى تـتم دورة الحيـاة أيضـاً، وتـؤتي أكلهـا الطيـب في النفس. وهذا السر في ذهاب بعض الفقهاء لاعتبار النذر نوعاً مـن الحلف، لأن النذر بدأ من القلب، ثم امتد إلى الجوارح.. فلما لم تقـم الجوارح بدورها وتفي بنذرها، فإن كفارتـه، عندئـذ، سـتبدأ مـن الجوارح لتعود إلى القلب مرة أخرى، مثل اليمين تماماً!

وفي هذا المعنى جاءت قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، عندما عزم على ذبح ولده، ولم يبق في بؤرة شعوره غير الذبح، وصورة الدم النازف.. فلو نقض هذا الأمر لحنث القلب، وتأثمت النفس. عند ذلك، أكمل المشهد حتى النهاية، ولم يقف في منتصف الطريق!.. فيد إبراهيم لازالت كما هي. ولكن، هنا، استُبدلت رقبة برقبة، واستبدل دم الغلام بدم الكبش، وتم هذا المشهد حتى نهايته. فعزيمة إبراهيم، عليه السلام، كما هي، حادة متحفزة، ويده كما هي، مقتحمة متدفقة، وتم المشهد حتى نهايته، واستحق إبراهيم عليه السلام وصف ربه له: **(يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ)** (الصافات١٠٤،١٠٦).

عند ذلك لم يبق إلا صورة اللحم والدم، وهذا ينوب عنه ذبح. أي ذبح من دم ولحم!.. وفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت"[٤٧]

[٤٧] سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ٥/ ٢٩٩٦

وفي هذا المعنى جاءت أيضاً قصة سيدنا أيوب عليه السلام "عندما غضب على زوجته في أمر قد فعلته، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله وعافاه أفتاه بأن يأخذ ضغثاً فيه مائة عود فيضربها ضربة واحدة، وبهذا بر بيمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره.

الانسجام فى سورة الصف

التناقض بين الداخل والخارج جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [الصف : ٢]

وفي الآيات من ١-٤ نجد أن الله تبارك وتعالى، يذم الذين يتناقضون داخلاً وخارجاً، وظاهراً وباطناً، وقولاً وعملاً.. فيقول لهم: لم تقولون ما لا تفعلون؟ أي لِمَ يتناقض عملكم مع قولكم، وهو أشبه بالشرخ والنقب في جدار متماسك.

إن الداخل والخارج، أشبه ما يكونان بنقطتين، يمتد بينهما جدار متماسك، فإذا انسجم أول الجدار مع آخره، كان هذا الجدار في منتهى الروعة والانسجام، لا يبدو فيه أي نشوز أو رقوع.. فهو متماسك من أوله إلى آخره، يسر العين التي تقع عليه، لأنها لا تجد فيه عيباً. وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعالى: **{صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}** [الصف : ٤]

أما إذا حدث التناقض بين القول والعمل فإن هـذا البنـاء يختـل ويضطرب ولا يبدو فيه التماسك بين أوله وآخره. عند ذلك يحـس الإنسان بالمقت والقلق، وهذا ما جاءت إليه الإشارة بقوله تعـالى: **{كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [الصف : ٣]

وسورة الصف يدور محورها حول الانسجام كالتالي:

١- تبدأ بقوله تعالى: **{سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** [الصف:١] وفي هذا إشارة إلى الانسجام بـين الكـون كلـه: سمائه وأرضه، نجومه وشجره، سهله وجبلـه.. فالكـل يسـبح بحمـده، والكل يسجد له، فلا يشـذ شيء عـن السـجود والتسـبيح في هـذا الكون الفسيح، فهو يشبه الصف الواحـد والبنيـان المرصـوص لا تناقض فيه ولا اختلال.

٢- الآية الثانيـة تتحـدث عـن الانسـجام في الإنسـان بعـد أن تحدثت عن الانسجام في الكون، فـإذا كـان الكـون كلـه منسـجماً؛ فيجب أن يكون الإنسان كذلك منسجماً: ظـاهراً وباطنـاً، خارجـاً

وداخلاً، قولاً وعملاً.. فتقول الآية الثانية: [**يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟**].

ثم الآية التالية تتحدث عن الانسجام بين المجاهـدين في سـبيل الله؛ فلا ينبغي أن يكون هنـاك اخـتلاف وتنـاقض في قـولهم. فـإذا كانت غايتهم واحدة، فيجب أن تكون كلمتهم واحدة أيضـاً: **{إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَـفًّا كَـأَنَّهُمْ بُنْيَـانٌ مَرْصُـوصٌ}** [الصف : ٤]

بعد ذلك تتحدث الآيات عن عاقبة التناقض وعدم الانسـجام، كما حدث في بني إسرائيـل عنـدما تناقضـت أعمالهـم مـع قلـوبهم، وأقوالهم مـع أفعـالهم؛ لأن قلـوبهم تعلـم علـم اليقـين أن موسـى رسـول الله، وبـالرغم مـن هـذا اليقـين إلا أنهـم آذوه بألسـنتهم وأفعالهم. وهنا حدث الاختلاف وعدم الانسـجام، يقـول تعـالى: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهَّ إِلَـيْكُمْ! فَلَـمَّا زَاغُـوا أَزَاغَ اللهَّ قُلُـوبَهُمْ وَاللهَّ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِقِينَ}** [الصف : ٥]

في هذه الآية إشارة إلى أن الإيمان كان في قلوب فوم موسى بادئ ذي بدء. ومن المعلوم أن الإيمان القلبي يجب أن يُعَبَّر عنه بالأعمال الصالحة.. لكن، هنا حدث العكس: الإيمان قابله أعمال سيئة تمثلت في الجحود والإنكار؛ فحدث التناقض وعدم الانسجام في هذا النسيج النفسي. فماذا حدث بعد ذلك؟

استكمل الجحود والإنكار أجزاءه وتوابعه، وهي الفسق. فالجحود والإيذاء الخارجي ارتدا إلى قلوبهم فأفسدتها، وإلى هذا جاء التعبير بقوله تعالى: [**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**] أي لما زاغت أفعالهم زاغت قلوبهم، حتى تنسجم الأفعال مع الأقوال، والألسنة مع القلوب!

تجئ بعد ذلك الآيات التي تحدثنا عن التناقض عند النصارى، الذين آمنوا بقول المسيح عليه السلام، بأنه سيأتي من بعده رسول اسمه أحمد.. فلما جاء (أحمد) كفروا به وكذبوه: {**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**} [**الصف : ٦**]

تحدثنا الآيات بعد ذلك عن عدم الانسجام لدى المنافقين.. ينتسبون إلى الإسلام ويُحسبون على أهله، فيصدقون بألسنتهم ويكفرون بقلوبهم: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ}** [الصف : ٧]

بعد هذا المسح السريع لليهود والنصارى والمنافقين.. تأتي الآيات التالية لتتحدث بتفصيل أكثر عن المؤمنين الصادقين.. هؤلاء المؤمنين الصادقين أولى صفاتهم هي الانسجام بين القول والعمل، والفكر والسلوك، والظاهر والباطن.. فآمنوا بقلوبهم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

هكذا سار، بشكل متواز، قولهم مع فعلهم، وفكرهم مع سلوكهم.. لهذا فإن هذا العمل الخارجي سيرتد، مرة أخرى، إلى النفس فيزيدها ثباتاً ورسوخاً واستقراراً: **{تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [الصف : ١١]

وأخيراً تنتهي السورة بالحديث عن الانسجام لـدى الحـواريين، اتباع المسيح عليه السلام الذين آمنوا بعيسـى بألسـنتهم وقلـوبهم: **{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ؛ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِـنْ بَنِـي إِسْرَائِيـلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ}** [الصف : ١٤].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين